سلسلة الخلفاء



محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

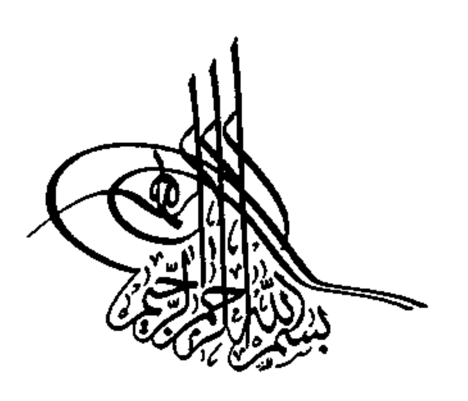
المكتب الإسلامي

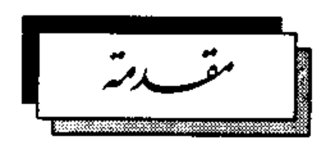
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

ضِيَاعُ الخِلَافَةِ


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ رسول الله محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين وعلىٰ إخوانه رسل الله وأنبيائه وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ دربه إلىٰ يوم الدين *أما بعد* :

فإن الله سبحانه وتعالىٰ قد بعث رسوله محمداً بشيراً ونذيراً للبشر كافةً، فأدّىٰ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده، ثم ارتحل ـ بأمر ربه ـ عن هذه الدنيا إلىٰ ما أُعدّ له من جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، اللهم صلِّ وسلّم وبارك عليه.

ولما شعر رسول الله ﷺ بالرحيل، قال: «مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس». فلما رحل ﷺ اختار أصحابه خليفةً له صديقه أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه فسار علىٰ دربه في دعوته ومنهجه وجهاده، وكذا كان يسير كل خليفةٍ علىٰ منهج سلفه في أمره كله، ومن خالف سار علىٰ غير دربٍ، فكلٌ خليفةُ سلفه وعلىٰ نهجه حتىٰ نصل إلىٰ رسول الله ﷺ، ومن توانىٰ أو حاد فإنما حسابه علىٰ

نفسه وكل نفسٍ بما كسبت رهينة، وحسابها على الله.

والخليفة يُعلن الجهاد عندما يدعو الأمر إلىٰ ذلك ويتجاوب المسلمون لذلك، فيُسرعون مُلبّين النداء أينما كانت ديارهم ما داموا يستطيعون الوصول، وينخرطون في صفوف المجاهدين تحت راية الخليفة ويجاهدون في سبيل الله، وينطلقون في قتالهم كالأُسود الكاسرة لا يُبالون بمن أمامهم مهما كانت أعدادهم، ومهما كان سلاحهم، ومهما كان استعدادهم إذْ أن المسلمين خرجوا يرجون الشهادة في سبيل الله وتلك أسمىٰ أمانيهم، ويطلبون النصر من الله، ومن طلب النصر من الله وصدق القول وأخلص العمل نصره الله، ومن نصره الله فلا غالب له.

وكان الأعداء يولّون الأدبار أمام المسلمين لا يلوون علىٰ شيءٍ، لا يسأل الوالد عن ولده، ولا الأخ عن أخيه همّهم النجاة إذ يطلبون الحياة ويخافون الموت، ومن سعىٰ وراء الحياة أذلّه الله، وكتب عليه الهزيمة.

انتصر المسلمون في جهادهم وهزموا أعداءهم في بلادهم، وفتح المسلمون البلدان ودان أهلها بالإسلام، ومن أبىٰ فرّ دون عودةٍ. وأقام المسلمون العدل،

ونشروا دينهم، فارتفع مجدهم، وعلا شأنهم، وكان عزّهم، وسادوا علىٰ كل من وقف أمام دعوتهم أو حاول ردّهم، أو دعم من ارتدّ عليهم.

اللهم اجعلنا من الأتقياء من أتباع سيد الأنبياء، واكتبنا مع الشهداء، وانصرنا علىٰ الأعداء. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

مقارنة

لم يعرف أعداء الإسلام مقاتلين فيمن واجهوا في حياتهم وممن سمعوا في تاريخهم كالمجاهدين المسلمين يندفعون كأُسد الشرىٰ يطلبون الشهادة لا يتراجعون مهما وقف أمامهم من سدودٍ بشريةٍ، ولا يتخاذلون مهما رأوا أمامهم من مخاطر، ولا يخافون مهما داسوا علىٰ جثث القتلىٰ، وخاضوا في دماء الجرحىٰ، وسمعوا عويل الأيامىٰ ونواح الثكالىٰ، وبكاء الأطفال، وأنين الذين يُنازعون الموت إن هذا كله لا يُبالون به ولا ينتبهون إليه ولا يهتمون به، إن هدفهم واحد يتجهون إليه ويعملون له ألا وهو:

١" ـ الانتصار علىٰ الأعداء والفتك بهم للقضاء علىٰ العقائد الباطلة، ونشر الدين الحق، وإقامة العدل، وإزالة الظلم، ورفع معالم الهدىٰ.

٢" ـ فتح البلدان لنشر الإسلام، وإعطاء صورةٍ صحيحةٍ عن هذا الدين وحملته، وترسيخ الإيمان في النفوس، ومتابعة الجهاد للدعوة.

٣" ـ نيل الشهادة في سبيل الله، وهذا أسمىٰ ما يتمنّاه المسلم ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً.

أما الأعداء فهمّهم الأول النجاة في القتال للمحافظة علىٰ الحياة لمتابعة الشهوات، وتحقيق المغريات، وفرض السيطرة لإبراز الشخصية، وإظهار القوة، والضغط علىٰ الأنداد، وكمّ الأفواه، وإسكات الناس بالشدّة والظلم. ومن هرب من القتل أدركه السيف، ومن خشي الموت أصابه إذ تعجز الأعضاء عن الحركة، وتتوقّف الحواس عن المتابعة، ويتلقّىٰ الجسم الضربات دون مقاومةٍ، وتلحق به الإصابات دون ردٍّ، وتتأثّر الجوارح بأضعف الإصابات.

فريقان إذن، وشتّان بين الفريقين:

أولهما: وهم المجاهدون المسلمون ينقضّون كالصقور لا يُبالون بالموت؛ بل يتمنّون الشهادة في سبيل الله، يندفعون صناديد متماسكين، كل مقاتلٍ معه أخ له، ويهتمّ بكل أخٍ اهتمامه بذاته، ويتمنّىٰ له ما يتمنّىٰ لنفسه، همّه رفع راية الحق، والدعوة لله، وإقامة علم الجهاد، يبقىٰ مندفعاً لا يبالي إن أصابته جراح فما

هي إلا وخزة شوكٍ، انطلق جعفر بن أبي طالب ﷺ في غزوة مؤتة أميراً يحمل الراية بمينه، فقُطعت يُمناه فأخذها بشِماله، فقُطعت شِماله فاحتضنها بعضُده، ولم يُبالِ فلم يتركها إذ لو وقعت علىٰ الأرض وهو الأمير لدليل علىٰ الضعف، وربما يُؤدّي ذلك إلىٰ خللٍ في صفوف الجيش، ولما لم يعُد يستطع استعمال السلاح لفقد يديه استأسد أحد الأعداء وضربه ضربةً أردته قتيلاً فقال:

يا حبذا الجنّةُ واقترابها
طيّبةً وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها

وقد قُطع ﷺ نصفين من ضربة الكافر، ووُجد فيما أقبل من جسده بضعة وثلاثون جرحاً. وهذا مثال المسلم المجاهد الأمير القائد: نظرة إلىٰ النصر في الدنيا للعمل إلىٰ الآخرة أو قفزة إلىٰ الآخرة بالشهادة ليكون في أعلىٰ عليين مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

أما **الفريق الثاني**: فهم أعداء الإسلام الذين يجتمعون للقتال، ويسيرون نحو خصمهم يُسرعون، وهم

يُفكّرون بالنهب والسلب، وأخذ الغنائم من الخصم، والوصول إلىٰ السبي، والعودة إلىٰ الأهل سالمين غانمين سعداء بما سلبوا ونهبوا، فرحين بما غنموا، مسرورين بما سبوا، مُتباهين بما قتلوا، والرجوع ناجين لا فرق إن كانوا فارّين أم مهزومين أم منتصرين رابحين، المهم أن يعودوا لينعموا بشهوات الدنيا ومُغرياتها وليتباهوا بمن قتلوا، وما سلبوا ونهبوا، وليسعدوا بمفاتن الدنيا وبسط النفوذ والسيطرة بوسيلة الظلم، والارتقاء علىٰ درجات السُّلّم بالضغط، وتحقيق الرفاهية لنفسه بما أخذ قهراً وما وصل إليه عنوةً، فتلك الحياة السعيدة ـ حسب زعمه ـ والتي يعمل لها بجهده ولا يُبالي إلا بنفسه حتىٰ في القتال لا يلتفت أحدهم إلىٰ أبيه، ولا ينظر إلىٰ أخيه، همّه ذاته ونجاة شخصه، وإذا حمي الوطيس أخذ يفكّر في وسيلة الرجوع إلىٰ الأهل وطريق العودة إلىٰ شهوات الدنيا والمغريات، فإذا لمح اندفاع الطرف الثاني نحوهم خارت قواه واتجه بفكره إلىٰ طريق السلامة، وإذا رأىٰ جريحاً من عسكره ارتعشت أعصابه، وإن شاهد صريعاً فَقَدَ توازنه، وإذا كثرت القتلىٰ دبّت فيه الحماسة وتماسك جسمه، وضبط الأعصاب، وولّىٰ الأدبار باتجاه قواعدهم، وكانت الهزيمة، وولّىٰ الجند الفرار، وانتهت المعركة.

فأي الفريقين أولىٰ بالنصر، وأحقّ بالسلطان لمصلحة الخلق وفائدة الناس في تطبيق العدل، وتحقيق المساواة، ونشر الخير.

لقد انتصر المسلمون، وهزموا أعداءهم، وفتحوا البلدان، وخضع لهم السكان، وأقاموا العدل، وانتشر الخير، وعرف سكان البلدان التي فُتحت حقيقة الإسلام وصدق دعاته؛ فأقبلوا عليه، فعمّ الخير، وارتفعت راية الحق ـ ولله الحمد ـ وكذا تكون دائماً نتيجة صدق القول والإخلاص بالعمل وسلامة الدعوة.

بداية العمل

أدّىٰ رسول الله ﷺ الأمانة، ونجح في أدائها وبلّغ الرسالة، وأقبل عليها الكثيرون في مكة المكرمة، ووقف في وجهه آخرون حرصاً علىٰ مصالحهم وخوفاً علىٰ سيادتهم، ثم هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم إلىٰ المدينة المنورة وقد ظهرت قواعد للدعوة هناك، وكان حملتها أنصاراً لرسول الله.

وفي المدينة المنورة أُقيمت دولة الإسلام فساد الأمن، وعمّ الخير، وتحرّك الأعداء في الداخل من يهود ومنافقين وفي الخارج من أعرابٍ مشركين ومن يهود ونصارىٰ، ورفع المسلمون راية الجهاد وانطلقوا يواجهون أعداءهم ويدعون إلىٰ الإسلام تحت قيادة رسولهم الكريم ﷺ، وتحت توجيهه وإشرافه، وقد نصرهم الله فدان معظم الأعراب بالإسلام، وخنع اليهود في قواعدهم: خيبر، وفَدَك، ووادي القرىٰ، وتيماء، كما خنع النصارىٰ في نجران وغيرها.

أدّىٰ رسول الله ﷺ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وانتقل إلىٰ الملأ

الأعلىٰ ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً.

بعد أن انتقل رسول الله ﷺ من الحياة الدنيا إلىٰ الدار الآخرة، ارتدّ بعض الأعراب فرجعوا إلىٰ شركهم، وأيّدتهم بعض قبائلهم، كما شجّعهم أعداء الإسلام في الخارج من نصارىٰ ومجوسٍ، ووعدوهم بالدعم والمساعدة، فجمع المرتدّون رجالهم ممن أيّدهم من قبائلهم وأخذوا بالاستعداد للوقوف في وجه المسلمين.

سيّر أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ القوات إليهم فقهرتهم، وألزمتهم بالعودة إلىٰ الطاعة، وإعلان الإسلام، والرجوع إليه بعد أن ارتدّوا عنه. وكان لا بدّ من قتال من شجّعهم للخروج علىٰ المسلمين، وهؤلاء المشجّعون هم: الفرس والروم ـ كما ذكرنا ـ.

كان للفرس دولة وللروم دولة، وتُعدّ هاتان الدولتان كبريتي دول العالم، وكانتا في صراعٍ فيما بينهما، فلما انتهىٰ المسلمون من حرب المرتدين كان لا بدّ من إرسال القوات المسلمة إلىٰ هاتين الدولتين لتأديبهما علىٰ ما أقدمتا عليه من دعم المرتدين، وللدعوة إلىٰ الإسلام، وإزالة الباطل والظلم السائدين

في بلادهما؛ بل وفي العالم كله باستثناء من منّ الله عليهم بالهداية فدخلوا في الإسلام في هذه البقعة المحدودة من أرض العالم.

انطلق المجاهدون من قاعدة المسلمين، من مدينة رسول الله ﷺ من المدينة المنورة لقتال الفرس والروم، والتقىٰ المجاهدون بجيوش الأعداء فدحروها، وقد دخلوا بلاد الفرس عنوةً وفتحوها، وأقبل الفرس علىٰ الإسلام، وأصبحوا من أهله بعد أن رأوا أخلاق أبنائه ومعاملتهم، ولمسوا موافقة تعاليم الإسلام ومنهجه للعقل البشري السليم. وما أن علم حكام الفرس ودهاقنة مجوسيتهم بإسلام أتباعهم، حتىٰ طاشت عقولهم، وطار صوابهم إذ فقدوا سيادتهم، وابتعدوا عن أتباعهم حيث أصبحوا أتباع عقيدةٍ تختلف عن عقيدتهم وتتباين عنها كل التباين بل وتُحاربها وتريد إزالتها لما فيها من شركٍ وباطلٍ وافتراءٍ، فوجدوا أنفسهم إن أسلموا فقدوا سلطانهم ومكانتهم، وإن بقوا علىٰ ما هم عليه من شركٍ قُتلوا وانتهىٰ أمرهم، وإن فرّوا متنكّرين زال سلطانهم، وتعرّضوا للمخاطر، وعاشوا أذلّاء، فرأوا أن يلجؤوا للخداع فيُظهرون الإسلام فيحمون أرواحهم قبل كل شيءٍ، ثم يبقون علىٰ صلةٍ بأتباعهم سابقاً، ولا حرج في تلك الصلة ولا غبار عليها، ما

داموا علىٰ عقيدة الأمة ظاهرياً ومن أبنائها، وفي الوقت نفسه يمكنهم بثّ الدسائس، ونشر الافتراءات التي تُبعد أتباعهم سابقاً عن صفاء العقيدة الإسلامية فيبقىٰ حاجز متين بينهم وبين المسلمين الصادقين، وكان من هذه الدسائس الخبيثة إعطاء صفاتٍ لبعض رجالات الإسلام فوق مستوىٰ البشر، ويختارون عادةً هؤلاء الرجال ممن لهم صلة قرابةٍ مع رسول الله ﷺ، فربما يتقبّل ذلك بعض العامة البسطاء، فيقدّسون أولئك حتىٰ يكادوا يعبدونهم، وفي هذا ما يكفي ليُفسد العقيدة ويُخرج القائلين بها عن الإسلام، وفي الوقت نفسه يُلصقون الافتراءات في بعض رجالات الإسلام الأوائل ومن بُناة دولته، ومن أصحاب رسول الله ﷺ الأوائل وخيارهم، وفي هذا ما يكفي لتجزئة الأمة وإيجاد الصراع بين أبنائها. وهذا ما كان إذ فسدت عقيدة جماعةٍ منهم، وجرىٰ الخلاف بينهم وبين بقية المسلمين، وحدثت معارك وفتن، واستمرّ ذلك باقياً.

ولا بدّ هنا من أن نُشير إلىٰ دور اليهود، وذلك أنهم قد خنعوا بعد أن هُزموا إثر خياناتهم التي قاموا بها، ثم أُخرج أكثرهم من جزيرة العرب فانتقل بعضهم إلىٰ الشام وبعضهم إلىٰ العراق أي بقوا في ديار الخلافة الإسلامية، ولكنهم أعداد قليلة.

وجد اليهود أنفسهم قلةً لا يمكنهم المواجهة في حربٍ أو قتالٍ بل لم يعتادوا هذا بل وسيلتهم الفتن والفساد ورمي البلاء، فسلكوا وسيلتهم واتبعوا مسلكهم، فأخذوا يمجّدون رجالات من المسلمين ويرفعون من مكانتهم ما هو فوق مستوىٰ الخلق، ويفترون علىٰ آخرين ويحاولون الوضع من شأنهم، هؤلاء من قبيلةٍ وأولئك من أخرىٰ عسىٰ أن تثور العصبية الجاهلية ويكون الصراع، وتحدث الفُرقة بين المسلمين، هذا إضافةً إلىٰ ما في ذلك من إساءةٍ إلىٰ العقيدة وطعنٍ في صحتها من إعطاء بعض الخلق أعلىٰ من مستواهم البشري.

وأسرع المجوس وأخذوا ما طرح اليهود من أفكارٍ إذ وجدوا فيها بغيتهم وعرفوا فيها ضالتهم، فحملوها وتبنّوها، وصارت فكرتهم التي يحملونها ويدعون إليها ويرفعونها منادين بها.

ادّعت أُسر النسب إلىٰ بني هاشم القرشيين تقرّباً من رسول الله ﷺ لتحمل ما نُسب إلىٰ بعض أسباط رسول الله ﷺ، وأحفادهم كي تستطيع أن تُؤدّي دوراً في الفتن وإيقاع الخلاف والهدم من الداخل إذا ما تبعها الناس لنسبها المدّعىٰ، وهذه الأسر التفّ حولها فعلاً بعض العامة والمفسدين لمصالح لهم وشكّلوا فرقاً لعبت

دوراً في الهدم بما طرحت من أفكارٍ باطلةٍ وأقوالٍ كاذبةٍ، وأوجدت خلافاتٍ في الأمة ساهمت في التجزئة، ولا تزالة قائمةً. وساهم في هذه الفرق الضالة كل من اليهود والمجوس حتىٰ اختلطت معرفة الأصول فتارةً تُنسب لهذا الفريق وتارةً لذاك، ولكن غالباً ما يعود الأصل إلىٰ المجوس والفكر إلىٰ اليهود، وقد يشتركان ما دام الادّعاء والافتراء شائعان فإن ميمون القداح بن ديصان اليهودي قد طلب من أبنائه أن يُسمّوا أبناءهم وأحفادهم باسم أبناء وأحفاد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر الطالبي الهاشمي، حتىٰ كان عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون فهنا يهودي ادّعىٰ نسباً هاشمياً لوجود تشابهٍ بالأسماء. وقام العبيديون (أبناء عبيد الله) بالنسب إلىٰ محمد بن إسماعيل، وملكوا مصر وشمالي إفريقية كما امتدّ سلطانهم إلىٰ الشام والحجاز حتىٰ قضىٰ عليهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ.

ونشأت فرق جعلت دعوتها لبعض حكام العبيديين، وانتشرت هذه الفرق في الشام واليمن... كما ظهرت فرق تنتمي إلىٰ المجوس مثل: القرامطة، وأخرىٰ تنتمي إلىٰ اليهود وهكذا كان التعاون بين هاتين الفئتين والهدم لعقيدة الإسلام ولتجزئة الأمة الإسلامية

وإيقاع الخلاف بين تلك الأقسام. وهذه التجزئة قد أدّت إلىٰ تجزئة ديار الخلافة وبالتالي إلىٰ ضياعها.

أما الروم فقد كان يمتدّ سلطانهم إلىٰ الشام ومصر وأجزاء من شمالي إفريقية، وكانوا في حروبٍ دائمةٍ مع الفرس، فتارةً يتغلّب هؤلاء وتتسع مناطق نفوذهم، وتارةً ينتصر أولئك ويحتلّون أجزاء مما كان يسيطر عليها الطرف الآخر، وكانت تُسمّىٰ إمبراطوريتهم (الإمبراطورية البيزنطية) أو (إمبرطورية الروم الشرقية)، وتدين بالنصرانية علىٰ المذهب الأرثوذكسي.

كانت نظرة البيزنطيين إلىٰ المسلمين نظرةً ليس فيها تقدير، بل هم من القبائل العربية التي تتقاتل علىٰ مساقط الغيث ومواطن الكلأ ويقع الحرب بينها لأتفه الأسباب، وعندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغيّر نظرة الروم السابقة ولكن لما طرد المسلمون اليهود من المدينة ووصل بعضهم إلىٰ بلاد الشام، ثم وصلت كتب رسول الله ﷺ إلىٰ الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام، فآمن من آمن، وخاف علىٰ ملكه من خاف فأبىٰ، ومنهم ملكهم هرقل بالذات، وعاملهم علىٰ مصر، فاشتعل الحقد الصليبي في النفوس، وأخذ الخوف يظهر في المجالس، وكادت القلوب تتميّز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة في الشام،

وأوعزوا إليهم أن يقضوا علىٰ أيّ أثرٍ يصل إلىٰ جهاتهم من قبل المسلمين، ولهذا قَتل الغساسنة أربعة عشر رجلاً من دعاة المسلمين مع كعب بن عمير، وقَتل شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الغساسنة رسول النبي محمد ﷺ الحارث بن عمير الأزدي عندما التقىٰ به في مؤتة، وسأله عن قصده، فقال: الشام، فقال: لعلك من رسل محمدٍ؟، قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فقُيّد، ثم قتله صبراً، هذا إضافةً إلىٰ تهديد الملك الغساني الحارث بن أبي شمر بغزو الجزيرة واحتلال المدينة، لهذا كله أراد رسول الله ﷺ أن يُعطي الروم وعمالهم الغساسنة معاً صورةً حقيقيةً عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يُقاتلوا للأسلاب، بل للدعوة إلىٰ الله، وأن قوتهم تختلف عن قوة القبائل المتنقلة التي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كالقتال من أجل الأرض.

غزوة مؤتة:

بعث رسول الله ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلافٍ لتأديب الروم وعمّالهم علىٰ تصرّفاتهم، وانطلق الجيش في شهر جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨هـ، ووصلت أخباره إلىٰ عامل الروم علىٰ بلاد الشام الجنوبية شرحبيل بن عمرو

الغساني، فأخبر الروم، وبدأ يجمع المقاتلين من القبائل العربية التابعة للروم، وأرسل أخاه (سدوس) طليعةً له مع خمسين مقاتلاً لاستطلاع الأخبار عن الجيش الإسلامي، غير أن (سدوس) قد وقع بأيدي المسلمين في وادي القرىٰ وقُتل، فخاف الأمير شرحبيل بعد مقتل أخيه خوفاً شديداً، وطلب النجدة من الروم، وكان ملك الروم هرقل آنذاك في بيت المقدس، وجاءت نجدة الروم وقوامها مائة ألف مقاتلٍ إذ أيقن الروم أن الأمر جدّ حيث ما اعتادوا أن يطلب عمّالهم الغساسنة نجدةً منهم لردّ غارةٍ عربيةٍ إذ أنهم يكفونهم ذلك، وكان الغساسنة قد جمعوا أيضاً مائة ألفٍ ووصلت إليهم نجدة الروم بقيادة (تيودور) أخي هرقل ملك الروم، وبذا أصبحت قوة أعداء المسلمين مائتي ألف مقاتلٍ، علىٰ حين كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلافٍ فقط، فالفرق هائل والأمر يحتاج إلىٰ تفكيرٍ.

وصلت أخبار قوة الروم وعمّالهم الغساسنة إلىٰ الجيش الإسلامي، وكان قد وصل إلىٰ مدينة معان فتوقّف الجيش للتشاور، فرأىٰ فريق منهم إعلام المدينة، وطلب المدد، وانتظار الجواب، ورأىٰ فريق ثانٍ ضرورة ملاقاة العدوّ، فالجهاد لا يتوقّف علىٰ عدد العدوّ، وأنهم إن انتظروا فقد لا يُمهلهم العدوّ، فإما

العودة وهي ليست بالحساب، وإما ملاقاة الأعداء، وكان من هذا الفريق عبد الله بن رواحة ﷺ القائد الثالث للجيش، وقد قال: (إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون[1]، وما نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدرٍ ما معنا إلا فرسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد، فانطلقوا بنا فإنما هي إحدىٰ الحسنيين؛ إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خلف؛ وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان). وبعد هذه الكلمة اشتدت حماسة المسلمين للقتال، وأصدر قائدهم زيد بن حارثة ﷺ أمره بالتحرك لملاقاة الأعداء.

كان قوام جيش الروم مائة ألف مقاتلٍ بقيادة (تيودور) أخي هرقل، مع مائة ألفٍ مع الغساسنة بقيادة (مالك بن رافلة البلوي)، ومع هذا الجيش العرمرم ما يزيد علىٰ خمسين ألفاً من الخيل. أما الجيش الإسلامي فلم يكن ليزيد علىٰ ثلاثة آلاف مقاتلٍ.

وصل الجيش الإسلامي إلىٰ (مؤتة) فتحصّن بها خوفاً من التطويق، وتوقّع الروم أن يُبيدوا الجيش

(١) الطلب: هو الشهادة في سبيل الله.

الإسلامي إبادةً تامةً خلال ساعةٍ أو ساعاتٍ قلائل، أو يضطروه إلىٰ الاستسلام، ولكنهم رأوا غير ما توقّعوا، وجدوا رجالاً يندفون إلىٰ القتال دون مبالاةٍ وكأنه لا شيء أمامهم، أو كأنهم يحصدون حقولاً من نبات القمح تمايلت سنابلها، وقد استمرّت المعركة سبعة أيامٍ وجد الروم خلال الأيام الستة الأهوال كلها، وعانوا الشدائد، وشُدهوا من الشجاعة البالغة لهؤلاء الذين يقاتلونهم، وكلما حاولوا اقتحام مواقع المسلمين باءوا بالفشل علىٰ الرغم من كثرتهم الكبيرة، ورجعوا إلىٰ أماكنهم مخلّفين وراءهم عدداً كبيراً من القتلىٰ في ساحة المعركة، وظلّ المسلمون في صمودٍ تامٍ ومعنويةٍ عاليةٍ. وفي آخر اليوم السادس استشهد قائد المسلمين زيد بن حارثة ﷺ بعد أن دخل صفوف الأعداء، وقتل منهم الكثير كعادته في كل يومٍ من أيام المعركة، وفي هذه المرة تناوشته رماح الأعداء فخرّ صريعاً، ولم يسقط اللواء من يده بل تناوله القائد الثاني جعفر بن أبي طالب ﷺ والذي كان يقاتل بجانب القائد زيد طيلة أيام المعركة السابقة، فقاتل قتالاً شديداً شُدِه له الروم فكان يدفع جحافل الروم أمامه وتسير كتائب المسلمين خلفه، ثم أقحم فرسه وسط جموع الخصم ولكثرة الزحام وشدة الالتحام عجزت فرسه علىٰ قوتها عن

الحركة، فألقىٰ نفسه عنها، وعقرها، كي لا يستفيد منها العدوّ، وقاتل مترجّلاً قتالاً لم يكد يسبقه أحد إليه، وأحاط الروم به من كل جهةٍ، وهو يُشتّت شملهم حيث اتجه حتىٰ أُنهك، وقُطعت يده اليمنىٰ التي تحمل الراية، فأخذها باليد الأخرىٰ فقُطعت، فاحتضنها بعضده خوفاً من أن تقع لأن سقوط الراية معناها هزيمة الجيش، وبسقوطها تنهار معنويات المقاتلين، ثم أثخنته الجراح فوقع شهيداً، وبه أكثر من تسعين ضربةً، منها طعنة رمحٍ قد نفذت من جسمه، وضربة سيفٍ قد شطرته إلىٰ نصفين، ثم تناول الراية عبد الله بن رواحة ﷺ فاستبسل في القتال حتىٰ لقي مصرعه، وسقط لواء المسلمين في الأرض فضعفت المعنويات، وبدأ بعض المسلمين بالتراجع؛ إلا أن قطبة بن عامر الأنصاري قد رفع اللواء، وأخذه منه ثابت بن أقرم، وبدأ يصيح بالناس فثابوا إلىٰ رشدهم، وسلّم اللواء إلىٰ خالد بن الوليد ﷺ وكان اليوم السادس قد انتهىٰ وأرخىٰ الظلام سدوله، ومنع الليل بعض الفريقين من بعضٍ، وأثناء الليل نظّم خالد ﷺ الجيش من جديدٍ، وفكّر في إنقاذ الموقف، فاختار كتائب من الفرسان، وطلب منها المرابطة خارج مؤتة، فإذا جاء الصباح والتحم المقاتلون جاء بعضها إثر بعضٍ مرتفعةً أصواتها

بالتكبير، وعدوُ الخيل يُثير النقع، ثم تشترك في المعركة، كما أبدل فرق مواقع الجيش، إذ جعل الميمنة مكان الميسرة والساقة مكان المقدمة. ومع انبلاج الفجر عاد القتال، وشنّ خالد ﷺ هجوماً معاكساً زلزل فيه الروم، فوجد المقاتلون الروم أمامهم غير الذين عرفوهم فظنّوا أن مدداً جاء للمسلمين فخافوا مغبة الأمر، ثم تتالت كتائب فرسان المسلمين تصل إلىٰ المعركة وكأنها فرق جديدة وكبيرة حسبما يظهر من الغبار المرتفع والأصوات المتعالية، وزاد خوف الروم، وأيقنوا أن المدد قد وصل إلى المسلمين، واعتقدوا أنهم لا قبل لهم بقواتٍ إضافيةٍ كبيرةٍ، وقد أنهكتهم قوة صغيرة فكيف بهم بجموعٍ كثيرةٍ لم تعرف التعب بعد.

وصبر المسلمون يومهم السابع ببسالةٍ، ولكن بشيءٍ كثيرٍ من التعب، وعندما جاء المساء وفصل الظلام بين الجيشين انسحب خالد بن الوليد ﷺ بالجيش علىٰ شكل كتائب يحمي بعضها أثناء التراجع بعضها الآخر خوفاً من ملاحقة الروم ومطاردتهم، وعندهم الإمكانات الضخمة إذ عندهم من سلاح المطاردة خمسون ألفاً من الفرسان، غير أن الروم قد أيقنوا أن هذا الانسحاب إنما هو مكيدة حربية بعد أن جاءتهم القوات الجديدة، وأنهم ينصبون الكمائن

ليُوقعوا الروم فيها، لذا أحجموا عن المطاردة، ونجا الجيش الإسلامي الصغير بهذه الخطة.

ويبدو أن الروم بعد معركة مؤتة قد شعروا بقلّة المسلمين الذين لم يستطيعوا أن يجمعوا أكثر من ثلاثة آلاف مقاتلٍ يرسلونهم إلىٰ منطقةٍ يزيد بُعدها على ستمائة ميلٍ عن حاضرة دولتهم وإلىٰ دولةٍ واسعةٍ مترامية الأطراف تستطيع زجّ مئات الألوف، ولهذا فقد أوكل الروم مرةً ثانيةً إلىٰ عملائهم من العرب المتنصّرة غزو قاعدة المسلمين وحاضرتهم المدينة المنورة، وكانت أوامر الروم خاصةً بقبيلة قضاعة وبطونها المتعددة الذين اشتركوا في معركة مؤتة، وكانوا قوامها ودفعوا إليها مائة ألف مقاتلٍ، وقد لقي قائدهم مالك بن رافلة مصرعه في تلك المعركة، وبعد هذه الأوامر من الروم إلىٰ العرب المتنصّرة فقد بدأت قبيلة قضاعة تحشد جموعها وتستنفر بطونها، وهي علىٰ خوفٍ من قتال المسلمين لما لقيت في مؤتة، ولكن لا بدّ من تنفيذ أوامر ساداتها الروم.

معركة ذات السلاسل:

وصلت الأخبار إلىٰ رسول الله ﷺ بجموع قضاعها فأراد أن يُفاجئها قبل الانتهاء من استعدادها،

كما أراد أن يبعث إليها بقوةٍ قليلةٍ تدلّ علىٰ قيمة قضاعة في نظر المسلمين، وأن الثلاثة آلاف مقاتلٍ الذين كانوا جيش المسلمين في مؤتة كان هدفهم الروم وليس قُضاعة وغيرها من تلك القبائل الضاربة في تلك الجهات.

أرسل رسول الله ﷺ قوةً مؤلفةً من ثلاثمائة رجلٍ بإمرة عمرو بن العاص ﷺ ولم يمض علىٰ إسلامه أكثر من أربعة أشهرٍ، ويكون قتاله هذا أول قتالٍ إسلاميٍّ يشترك فيه، وتضمّ هذه القوة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين في الإسلام.

تحركت القوة الإسلامية من المدينة في شهر جمادىٰ الآخرة سنة ٨هـ، وسار حتىٰ دخل في أرض العدوّ، ونزل علىٰ ماء يُسمّىٰ ذات السلاسل، وجاءت المعلومات إلىٰ عمرو بن العاص ﷺ أن قوة العدوّ كبيرة لا يستطيع ملاقاتها بمن معه، لذا طلب المدد من المدينة علىٰ جناح السرعة، وخرج من أرض العدو خشية الصدام قبل وصول المدد، كما منع إشعال النار وخاصةً في الليل علىٰ الرغم من البرد الشديد في تلك الأيام وتلك الجهات زيادةً في كتم المعلومات.

وصل المدد إلىٰ ذات السلاسل بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ويضمّ مائتي مقاتلٍ، واشتبك الخصمان، ولكن قضاعة عجزت عن مواجهة المسلمين فلم تصمد

إلا قليلاً، ثم ولّت الأدبار علىٰ الرغم من كثرة عسكرها ومدّ الروم لها بالمال والسلاح، وقد طارد المسلمون عسكرها الذين ولّوا الأدبار هاربين، ثم منع القائد المطاردة خوفاً من الكمائن.

ويبدو أن الروم قد تغيّر عليهم وضع عرب الجزيرة وحروبهم بعد أن دانوا بالإسلام، وبعد أن رأوا قتالهم في مؤتة، وسمعوا عن قتالهم في ذات السلاسل ضدّ قبيلة قضاعة وبطونها فوجدوا أنه لم يعد يجري معهم تكليف حلفائهم من العرب المتنصّرة أو الغساسنة في تأديب عرب الجزيرة المسلمين إذ لا بد من أن يمدّوهم بالجند ويدعموهم بالسلاح، ولهذا بدؤوا في حشد الجموع والاستعداد لغزو المدينة.

غزوة تبوك:

وعلم رسول الله ﷺ بخبر الروم وحشدهم فأمر المسلمين بالاستعداد للقتال، وأخبرهم أنه يريد الروم، ولم يُوَرِّ كعادته ﷺ إذ بيّن الهدف والجهة لبُعد الشقّة، وقسوة الواقع، وشدّة العدو الذي يقصده، وكثرة عدده، ليتأهّب الناس لذلك، ويأخذوا عدّتهم الكاملة.

سار رسول الله ﷺ بالمسلمين من المدينة المنورة باتجاه مدينة تبوك بقوةٍ يُقدّر عددها بثلاثين ألفاً، وقد

تخلّف المنافقون، واعتذر الأعراب، وكلهم يتوقّع هزيمة المسلمين أمام الإمبراطورية البيزنطية، وأرجف هؤلاء جميعاً بالمسلمين.

وصل رسول الله ﷺ بالمسلمين إلىٰ تبوك، ولم يجد أثراً لتجمّع الروم فيها، إذ خشوا لقاء المسلمين بعدما عرفوا قتالهم، فأقام فيها بضع عشرة ليلةً جاءه أثناءها (يوحنا) صاحب أيلة[١]، وأهالي جرباء[٢]، وأهالي أذرح[٣]، فصالحوه علىٰ دفع الجزية، ورجع بعد ذلك إلىٰ المدينة، ويُعدّ قد انتصر إذ دخل منطقة العدوّ، ولم يجرؤوا علىٰ مواجهته علىٰ حين كانوا يستعدّون لذلك بل جاءت إليه رجال بعض مدنهم وصالحوه، ودفعوا له الجزية.

وجاء المخلّفون يعتذرون إلىٰ رسول الله ﷺ بأقوالٍ كاذبةٍ فقبل علانيتهم، ووكّل ضمائرهم إلىٰ الله سبحانه وتعالى، واستغفر لهم، وجاء الثلاثة المؤمنون الذين تخلّفوا وصدقوا ما قالوا إذ أقرّوا بذنبهم، وأنه لا

---

(١) أيلة: مدينة كانت مكان العقبة اليوم.

(٢) جرباء: مدينة تقع في منطقة الأردن اليوم في جنوب شرقي عمّان، وعلىٰ بُعد خمسين كيلومتراً منها.

(٣) أذرح: مدينة تقع في منطقة الأردن اليوم في جبال الشراة إلىٰ الشمال الغربي من مدينة معان، وعلىٰ بُعد عشرين كيلومتراً منها.

عذر لهم، إذ كانوا بصحةٍ ويُسرٍ، فتاب الله عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

انتقل رسول الله ﷺ من دار الدنيا إلىٰ الآخرة، واختار المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفةً له، وارتدّ كثير من الأعراب عن الإسلام، وسادوا بعضاً من قبائلهم، وغرّتهم الحياة الدنيا، ووصلت هذه الأخبار إلىٰ الجوار، إلىٰ دولتي الفرس والروم فسرّتهم الأنباء، وأسعدتهم الأحداث، وتوقّعوا التغيير، وبعثوا إلىٰ المرتدين يشكرون لهم حسن صنيعهم، وصحة فعلهم، وصدق عملهم، ووعدوهم بالدعم والتأييد والنجدة والإمداد، وشجّعوهم علىٰ الثبات والهمّة والبطولة والقوة فهم أهلها ومعروفون بها، وهذا ما شدّ من عزم المرتدين ورفع من معنوياتهم وزاد من أطماعهم.

حرب المرتدين:

بعث الخليفة الصديق رضي الله عنه الجيوش إلىٰ المرتدين، فأخضعوهم فخنعوا وعادوا إلىٰ سابق عهدهم، وجعلوا مناطقهم قبوراً لمن أبىٰ واستعلىٰ، فانتهىٰ وضع جزيرة العرب ورجع أمرهم إلىٰ ما كانوا عليه.

وبعث الخليفة الصديق ﷺ إلىٰ قادة جيوشه بمتابعة السير لقتال من دعم المرتدّين من خارج الجزيرة وهم: الفرس والروم، فتابعت الجيوش مهمتها في وقتٍ واحدٍ، لأنها لو سارت إلىٰ جبهةٍ واحدةٍ لجاء الأعداء من الجبهة الثانية لمساعدة أوليائهم الكفار، وجعلوا المسلمين بين فكّي كماشة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] وإذا كان المسلمون قلّةً أمام الفرس والروم ومن الصعب أن يقاتلوا الدولتين وعلىٰ جبهتين؛ إلا أن المسلمين لم يُقاتلوا بالأعداد ولا بالمكاثرة بل يُقاتلون بالإيمان الراسخ في قلوبهم يرجون نصر الله، ومن ينصره الله فلا غالب له ولو كانت أمم الأرض تُقاتله مجتمعةً وبأيديها سلاح الدنيا.

انطلق المسلمون المجاهدون إلىٰ جبهتي الدولتين وجيوشهما غير مبالين بكثرةٍ، ولا مهتمين بتدريبٍ، ولا يحسبون حساباً لسلاحٍ، ولا يُفزعهم اتساع أرضٍ، ولا ماضي دولةٍ، فدحروا جيوش الدولتين أمامهم وملؤوا قلوبهم فزعاً وأفئدتهم هلعاً.

قتال الفرس:

أما دولة الفرس فقد قُضي عليها وانتهت، ومضىٰ تاريخها واندثر، وأقبل شعبها إلىٰ الإسلام، وتخلّىٰ عن

المجوسية إلىٰ الأبد فزالت دون رجعةٍ، ولكن رجال الدولة السابقة ودهاقنة المجوسية البائدة قد صعُب عليهم التخلّي عن مكانتهم وترك مراكزهم، كما عزّ عليهم التبعية لآخرين مركزاً أو عقيدةً، وهان عليهم أن يدينوا بالإسلام كما فعل عامتهم وجهلتهم و. . . ـ حسب تصوّرهم ـ ولكن ما العمل؟ فهم أفراد قلّة لا يستطيعون فعل شيءٍ كما أن السكان أتباعهم بالأمس لا يطيعونهم ولا يأتمرون بأمرهم ما داموا يختلفون عنهم عقيدةً، والعقيدة عامل الأخوة والصلة لا سواها، إذن هناك حاجز بينهما، كما لا يسمح لهم المسلمون بالبقاء علىٰ الكفر؛ فإما الإسلام وإما السيف.

لذا لم يجد السادة السابقون من حكامٍ ودهاقنةٍ سوىٰ إظهار الإسلام بأفواههم، وإخفاء ما كانوا عليه من مجوسيةٍ كي يبقوا علىٰ صلةٍ بشعبهم سابقاً يفترون علىٰ الإسلام، ويدسّون الدسائس لإفساد العقيدة، وقد كان هذا إذ أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وأخذوا يعملون فساداً فظهرت الفِرق الضالة فتفرّقت الأمة وضعف أمرها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ.

قتال الروم:

أما دولة الروم فلم تثبت جيوشها رغم كثرة العدد

أمام القوة الإسلامية رغم قلة عدد جندها، فالنصر لا يأتي بكثرة الجند، ولا بجودة السلاح، ولا بالمكر والخداع بل يأتي بصدق المطلب وسمو الهدف. فالروم يقاتلون لبسط النفوذ واحتلال الأرض ووصول الجند إلىٰ مغنمٍ من مغانم الدنيا الفانية؛ فالمطلب إذن فرض الجبروت والظلم بالنسبة للإمبراطور وأصحاب السلطان، وهو سرقة وسبي ونهب بالنسبة إلىٰ الجند، أما المسلمون فهدفهم الدعوة إلىٰ الله، وإزالة الشرك، ورفع الظلم، وإقامة العدل وهذا ما يتمّ بالنصر، وهناك هدف أسمىٰ وهو نيل الشهادة في سبيل الله للوصول إلىٰ جنّةٍ عرضها السماوات والأرض وحياةٍ أبديةٍ فيها وهذا يتمّ بالاستشهاد أي: الموت، ومن كان هدفه الموت يندفع إلىٰ العدو لا يُبالي بشيء، لا يُهمّه كثرة، ولا بطولة، ولا سلاح إذ هو يطلب الموت (الشهادة) ومن طلب الموت وُهبت له الحياة.

شتان بين الفريقين، فالمسلمون يطلبون الشهادة في سبيل الله ويعملون، فيُقبلون علىٰ الموت ويندفعون نحو المقاتلين بعزيمةٍ وقوةٍ وسرعةٍ وشجاعةٍ لا يبالون بشيءٍ أمامهم؛ بل إن المقاتلين الأعداء هم الهدف وخاصةً الشجعان فإن هزموهم فقد حقّقوا النصر ودعوا إلىٰ الإسلام، وأزالوا الشرك، ورفعوا الظلم، وأقاموا

العدل، وهذا إحدىٰ أمانيهم، وإن فشلوا وانتصر عليهم العدوّ فقتلهم فقد نالوا الشهادة ووصلوا إلىٰ جنةٍ عرضها السماوات والأرض وهذا ثانية أمانيهم، وهي عندهم أسمىٰ الأماني.

أما الروم فيطلبون الحياة ويسعون وراءها لذا يهربون من الموت فيفرّون من وجه المجاهدين المندفعين ويولّون الأدبار وتكون هزيمتهم ويحقّقون النجاة وهذا أغلىٰ أمانيهم، وإن ثبتوا وأبدوا شجاعةً فإن تفكيرهم بالحياة شاغل لهم عن حسن التصرّف بمواجهة العدوّ فيتلقّىٰ أحدهم الضربة القاتلة، ويُلقىٰ علىٰ الأرض صريعاً، ويراه الآخرون قتيلاً فيقع الخوف في قلوبهم فيُصيبهم ما أصابه ويُقتلون وهكذا يلقىٰ الموت من يهرب منه، ولم يُحقّق شيئاً من أمانيه لا بالنجاة وطلب الحياة، ولا بالنهب والسرقات وإسعاد أهله ـ حسب تفكيره ـ، ولا برفع مكانة أمته، بل مات، وأهمّ أهله إذ أيّم زوجته، ويتّم أبناءه، وأذلّ أمته.

تراجعت الجيوش الرومية أمام القوات الإسلامية، تراجعت القهقرىٰ، وانسحبت ذليلةً، انسحبت من الشام وجزءاً من الأناضول ومن مصر، وركنت إلىٰ جحورها تنتظر ضعف أمة الإسلام، وتعمل للاستعداد وتسعىٰ للحشود.

كانت الإمبراطورية البيزنطية (إمبراطورية الروم الشرقية) التي مقرها مدينة القسطنطينية تعلم علم اليقين أنها لا قبل لها بالمسلمين ما داموا علىٰ إيمانهم، وما دامت تجمعهم الخلافة، وتُوحّد صفوفهم، وترفع راية الجهاد فينطلق المسلمون مجاهدين يبتغون الفضل من ربهم النصر أو الشهادة، فيهبّون مندفعين كالأسود لا يُبالون بمن أمامهم يطلبون الشهادة في سبيل الله فينصرهم ربهم علىٰ عدوّهم، ويمنح بعضهم الشهادة في سبيله.

بقي الروم ينتظرون ضعف المسلمين بانصرافهم إلىٰ الدنيا الفانية يتقاتلون فيما بينهم للحصول علىٰ بعض مفاتنها أو للوصول إلىٰ بعض مغانيها فيتركون ما هم عليه من الإيمان، ويتخلّون عن الجهاد في سبيل الله، وينقسمون علىٰ أنفسهم دون النظر إلىٰ الخلافة وما هم عليه من وحدة الصف واجتماع الكلمة والتقاء أمة الإسلام التي وعدها الله بالنصر وإقامة منهج دين الله بالأرض.

لكن انتظار الروم لم يكن انتظاراً دون قتالٍ وسكوناً دائماً دون حركةٍ لأنهم لو فعلوا ذلك لشجّعوا المسلمين علىٰ اقتحام الأبواب عليهم وإخراجهم من جحورهم والقضاء عليهم والانتهاء منهم أبدياً دون كبير معاناةٍ؛ بل كان الروم يقومون ببعض الحروب الجانبية

كالغارات علىٰ بعض مجالات الرزق، أو القيام بالهجمات علىٰ بعض تجمعات البشر، أو السير إلىٰ بعض مراكز الضعف وقتالها ومحاولة احتلال مواطنها، وما ذاك إلا رغبةً في سبيل إثبات وجودهم وإظهار أنهم علىٰ شيءٍ من القوة فيُحسب لهم حساب، فلا يتجه المسلمون نحوهم ويُنهون أمرهم. لكن كان للمسلمين مهمات أخرىٰ وليس ما يقوم به الروم هو الذي يحول دونهم فالمجاهدون لا يقف أمام مهمتهم مثل هذا. لقد كان من مهمات المسلمين الدعوة إلىٰ الله وإزالة الكفر وساحتها الدنيا كلها عدا ديار الخلافة، ومن المهمات أيضاً قتال الذين يقفون في وجه الدعوة وإزالة الظلم وإقامة العدل وميدان ذلك دنيانا التي نعيش عليها سوىٰ ديار الإسلام فمهمات المسلمين كثيرة وجبهاتها واسعة لذا فليس هناك من وقتٍ ليتفرّغوا إلىٰ الروم؛ وإلا لاتّجهوا إليهم سواء تحرّكوا أم لم يتحرّكوا ما داموا قد وقفوا في وجه الدعوة والكفر عندهم عام والظلم سائد و. . . .

انتظر الروم وانتظروا فرأوا أن السعي وراء الدنيا قد بدأ يظهر عند بعض المسلمين بعد الثراء إثر الفتوحات، وتعدد الجواري، وكثرة المغريات؛ ففكّر الروم بالتحرّك عسىٰ أن ينالوا ما يحلمون والذي طال انتظارهم من أجله، فاستعدّوا وسيّروا الكتائب فإذا

بالإيمان يتحرّك في نفوس المسلمين، وترفع الخلافة راية الجهاد، وينطلق المجاهدون كالصقور وما أن يتمّ الانقضاض حتىٰ يُولّي جند الروم الأدبار، وكأنه لم يكن هناك جند.

وعاد الروم إلىٰ الانتظار حتىٰ غدوا يتوقّعون النصر بأقل مما يحسبون له حساباً إذ سيطر البويهيون علىٰ الخلافة في بغداد، وهم ممن يُظهر الإسلام، وما أن تمت لهم السيطرة حتىٰ بدّلوا أسماءهم الإسلامية إلىٰ أسماء جاهليةٍ، كما أن فِرَقاً أخرىٰ تُشبههم في الفكر قد سيطرت علىٰ أجزاء من ديار الإسلام كالسامانيين، والقرامطة، والعبيديين، والحمدانيين فزاد عند الروم الأمل بتحقيق ما تصبو إليه نفوسهم، وأخذوا بالاستعداد، وظنّوا أنهم بلغوا ما يريدون، بل إن ملك الروم (أرمانوس) قد أقطع بطارقته الأرض الإسلامية من حدود الروم حتىٰ مدينة بغداد، وعيّن له نائباً علىٰ بغداد قبل أن يسير، وعزم أن يبيد الإسلام وأهله، وإذا انتهىٰ من العراق وخراسان مال علىٰ الشام ميلةً واحداً فأباد المسلمين فيها أيضاً.

محاولة الروم:

خرج ملك الروم (أرمانوس) من القسطنطينية سنة

٤٦٣هـ متجهاً نحو الشرق إلىٰ بلاد المسلمين علىٰ رأس مائتي ألف مقاتلٍ علىٰ أقل تقديرٍ للمؤرّخين، ويضمّ هذا الجيش الكثيف أخلاطاً من الروم، والفرنجة، والروس، والصرب، والأرمن، والبوشناق فوصل إلىٰ (ملاذكرد) في شرقي تركيا اليوم، علىٰ مقربةٍ من بحيرة (وان)، ولكن كان أمر البويهيين قد انتهىٰ وتسلّم السيطرة علىٰ بغداد والخلافة السلاجقة، وكان السلطان السلجوقي يومذاك (ألب أرسلان).

وصلت أخبار الروم إلىٰ السلطان ألب أرسلان، وهو في أذربيجان، وقد عاد من مدينة حلب، فلم يتمكّن من جمع الجند لبُعده عن مقرّ سلطانه لقرب العدوّ منه فسار بمن معه، وهم خمسة عشر ألفاً، للقاء العدو متوكّلاً علىٰ الله، وقال: إنني أُقاتل صابراً محتسباً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالىٰ، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه هو ولي عهدي، وجدّ بالسير، وأرسل مقدمته أمامه، فالتقت عند مدينة (خلاط) بمقدمة الروس التي كان عدد أفرادها عشرة آلافٍ، فهُزم الروس ـ بإذن الله ـ وأُسر قائدهم.

واقترب الجمعان بعضهما من بعضٍ، وأرسل السلطان ألب أرسلان إلىٰ ملك الروم أرمانوس يطلب منه الهدنة، فقد خافه لكثرة من معه حيث كان عدد

جنده يزيد علىٰ مائتي ألفٍ علىٰ حين كان عدد جيش السلطان خمسة عشر ألفاً فالفرق كبير، فلا يمكن الاشتباك معه بالعرف المادي، ولكن أرمانوس أخذته العزّة بالإثم، فقال: لا هدنة إلا في الريّ (موقع طهران اليوم) أي بعد المناطق الإسلامية التي أقطعها أرمانوس لبطارقته مسبقاً. فتأثّر السلطان ألب أرسلان من جواب ملك الروم. فاستشار ألب أرسلان إمام جنده أبا نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فأجابه: إنك تُقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره علىٰ سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالىٰ قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء علىٰ المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة، وكان يومها يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من شهر ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ.

جاء يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة ٤٦٣هـ، وحان وقت الزوال، فصلّىٰ أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بالناس، فبكىٰ السلطان وبكىٰ الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه بعد الصلاة، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهىٰ، وإنما جهاد ورغبة في لقاء الله، ثم ألقىٰ القوس والنشاب، وأخذ السيف، ولبس البياض، وتحنّط،

وقال: إن قُتلت فهذا كفني، وزحف إلىٰ الروم، وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجّل، ومرّغ وجهه بالتراب، وبكىٰ، وأكثر من الدعاء، وطلب النصر من الله، ثم ركب وحمل علىٰ الروم، وحمل المسلمون معه حتىٰ وصلوا إلىٰ وسط الروم، وحجز الغبار بينهم، وما هي إلا جولة حتىٰ أنزل الله نصره، وهُزم الروم ومنحوا المسلمين أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتىٰ امتلأت الأرض بالجثث، وقُدّر عدد قتلىٰ الروم بمائةٍ وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلمٍ قتل عشرةً من الأعداء، ووقع ملك الروم (أرمانوس) وبطارقته جميعاً أسرىٰ بأيدي المسلمين، وحُمل (أرمانوس) إلىٰ السلطان (ألب أرسلان) فلما وقف بين يديه ضربه بيده ثلاث مقارع، وقال له: لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيحٍ. قال: فما ظنك بي؟ قال: إما أن تقتل بعد أن تُشهّر بي في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتُعيدني. قال: ما عزمت علىٰ غير العفو والفداء. فافتدىٰ نفسه بمليونٍ ونصف المليون من الدنانير، فقام بين يدي السلطان وسقاه شربةً من ماءٍ، وقبّل الأرض بين يديه. وقد ترك له السلطان عشرة آلاف دينارٍ ليتجهّز بها، وأطلق معه جماعةً من البطارقة الأسرىٰ.

ومن هذه المعركة وأمثالها يتبيّن أنه لا وزن

للمقاييس المادية، ولا لحسابات أهل الأرض جميعاً، فلو أردنا أن نقيس هذه المعركة بأي مقياسٍ من مقاييس الناس نصل بالنتيجة إلىٰ أن الهزيمة ستلحق بالمسلمين لا محالة، وأنه لن ينجو منهم إلا الشارد، فسيُطبق عليهم الروم إطباقاً وسيبيدونهم، وهذا أمر طبيعي، فإن مائتي ألف مقاتلٍ سيملؤون ميدان المعركة، وأن خمسة عشر ألفاً لا شيء مقابلهم. ولكن الحساب الإيماني غير هذا؛ فإن فئةً مؤمنةً بالله ملتجئةً إليه، متضرعةً له، طالبةً منه النصر، متخذةً الأسباب حسب إمكاناتها لا بدّ أن ينصرها. إن صرخةً واحدةً من مَلَكٍ كافيةً لتزلزل الأرض تحت أعداء الله، وتجعل عاليها سافلها عليهم، وتمحو أثرهم. وإن كلمة [كن] من ربك كافيةً لتطبق الأخشبين علىٰ الأعداء فيكونوا في جوف الأرض كأن لم يغنوا فيها.

اعتقد الروم بعد معركة ملاذكرد أنه لا قِبَل لهم بمواجهة المسلمين ما داموا علىٰ إيمانهم يُقاتلون تحت راية الجهاد في ظلّ خلافتهم، لذا لا بدّ من العمل لإيجاد حلٍّ لإبعاد المسلمين عن إيمانهم وجهادهم وخلافتهم، فعاد الروم إلىٰ جحورهم وأخذوا بالتفكير، ولكن لم يمض علىٰ معركة ملاذكرد سوىٰ ست عشرة سنةً حتىٰ قامت معركة تُشبهها في الأندلس سنة ٤٧٩هـ،

وتلك هي معركة الزلّاقة، إذ سار يوسف بن تاشفين إلىٰ الأندلس مجاهداً بدعوةٍ من بعض أمراء المسلمين في الأندلس، وسار نحو الشمال علىٰ رأس عشرين ألف مقاتلٍ من المغرب ومن الأندلس، فالتقوا مع جيش نصارىٰ الأندلس في سهل الزلّاقة بقيادة الفونس السادس، وكان جيش النصارىٰ جيشاً عرمرماً يزيد علىٰ مائتي ألف مقاتلٍ، وقد قاموا بهجومٍ علىٰ المسلمين وقت صلاة الجمعة، وكان المعتمد بن عباد أمير إشبيلية يخشىٰ من خديعة الأعداء فبقي في سلاحه مع قواته وتصدّىٰ لهجوم النصارىٰ، وانتهىٰ المرابطون من صلاتهم فحملوا علىٰ النصارىٰ وبدؤوا فيهم قتلاً حتىٰ قيل إنهم أفنوهم عن آخرهم؛ إلا من استطاع الفرار وذلك في منتصف رجب سنة ٤٧٩هـ، وقيل في أوائل رمضان، واستولىٰ المسلمون علىٰ كل ما كان مع النصارىٰ، أما ملك النصارىٰ الفونس السادس فقد نجا من القتل إذ فرّ من المعركة. وهكذا كان: فئة قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، وهذا ما أثار أحقاد النصرانية، وأشعل نار ضغائنها إذ كيف يكون هذا؟ فهم لا يستطيعون تحليل هذا ولا تأويله لأنهم لا يؤمنون. وتحرّكت الصليبية في أوربا واتجهت نحو ديار الإسلام تريد الانتقام؛ بل تريد إبادة المسلمين والقضاء علىٰ الإسلام.

الحروب الصليبية:

دعا البابا إيربان الثاني إلىٰ حربٍ صليبيةٍ إذ دعا إلىٰ اجتماعٍ عامٍ لرجال الدين سنة ٤٨٩هـ في مدينةِ (كليرمونت) في فرنسا، ونادىٰ الأمراء بترك الخلافات القائمة بينهم، وقدّم لهم الصليب، وجعل مبرراً لهذه الحرب ما يقوم به السلاجقة من مضايقةٍ للنصارىٰ الذين يريدون زيارة بيت المقدس، وطلب أن يحتلّ النصارىٰ بيت المقدس، وساهم بهذه الدعوة بطرس الناسك إذ سار يجمع المتطوعين، وسبق جيوش الأمراء النصارىٰ النظامية، وانطلق هؤلاء المتطوعون من غير نظامٍ فسبّبوا الفوضىٰ والدمار لكل المناطق التي مرّوا عليها حتىٰ النصرانية منها، ولما وصلوا إلىٰ بلاد المسلمين صبّوا جام حقدهم فأهلكوا الزرع والضرع، وأحرقوا الأخضر واليابس، وعاثوا في الأرض الفساد، وقتلوا ومثّلوا، وانتهكوا من الحرمات ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا ذلك.

خاف إمبراطور القسطنطينية أن يدعمهم فيكون هدفاً للمسلمين المجاهدين، وخشي أن يقف في وجههم فيناله شرّهم، وينزل عليه غضب الصليبية الكاثوليكية، فحار في أمره فعاونهم بالوصول إلىٰ الأناضول والتقدّم إلىٰ (نيقية)، فتصدّىٰ لهم السلاجقة والتقوا بهم هناك في

مدينة (نيقية) فأفنوهم عن بكرة أبيهم سنة ٤٨٩هـ.

بدأت في هذه الأثناء جيوش الأمراء الصليبيين النظامية تتحرّك نحو القسطنطينية، وقد أمر البابا أن تجتمع خارج أسوار القسطنطينية، ولم تكن هذه الجيوش أقلّ حقداً من الأولىٰ أو أقلّ فساداً ودماراً، كما لم يكن قائد واحد ينظّمها، ويصدر أوامره لها جميعاً؛ بل كان لها عدد من القادة أغلبهم من فرنسا، كما لم يكن لهؤلاء القادة خطة واحدة. وبلغ عدد المشتركين من الصليبيين في هذه الحملة التي عُرفت باسم الحملة الصليبية الأولىٰ أكثر من مليون إنسانٍ، وهذا يدلّ علىٰ أن الصليبية قد انتفضت انتفاضة حاقدٍ، وهبت هبّة مسعورٍ، غير أن المقاتلين لم يزد عددهم فيها علىٰ ثلاثمائة ألف مقاتلٍ والباقي إنما هم من المرافقين من الرجال والنساء.

وصلت هذه الحملة الصليبية إلىٰ أبواب القسطنطينية وخاف إمبراطورها منهم، فاتفق مع بعض القادة علىٰ أن يمدّهم بالمؤن والذخيرة علىٰ أن لا يدخلوا المدينة، وأن يردّوا عليه ما يستولون عليه من أملاكه، فاجتازوا مضيق البوسفور، ووصلوا إلىٰ مدينة (نيقية) فحاصروها، فنقل (قليج أرسلان) السلجوقي مقره منها إلىٰ مدينة (قونية) واتفق مع الإمبراطور أن

يدخل جنده (نيقية) دون القادمين من أوربا، فحدث نتيجة ذلك خلاف بين الصليبيين القادمين من أوربا وبين الصليبيين البيزنطيين، ووجد الإمبراطور البيزنطي أنه يصعب عليه التفاهم مع هؤلاء الصليبيين القادمين، وأخذ يعمل لاحتلال آسيا الصغرىٰ (الأناضول) من السلاجقة. ولم يعد يدعم الصليبيين، ثم رجع بعدة مدةٍ لتقديم الدعم.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعضٍ، إذ اتجه بعضهم إلىٰ مدينة (الرها) وأسّس فيها إمارةً صليبيةً، كما كانوا يطمحون بتأسيس دولةٍ صليبيةٍ في أرمينية، وقد ساعدهم الأرمن في ذلك، ولكن لم يتمّ الأمر. أما القادة الصليبيون الآخرون فقد ساروا إلىٰ مدينة أنطاكية وألقوا الحصار عليها، ثم دخلوها عنوةً سنة ٤٩١هـ بعد حصارٍ دام سبعة أشهرٍ، وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلافٍ، ومثّلوا بهم، وارتكبوا أبشع الجرائم، وقد استقبل النصارىٰ من أهلها والأرمن الصليبيين الغزاة بكل ترحابٍ، وقد ولّىٰ الصليبيون أحدهم علىٰ أنطاكية، وساروا نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم صاحب الموصل، وصاحب حمص، وصاحب دمشق غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم، ودخلوا معرة النعمان، وتابعوا سيرهم إلىٰ بيت المقدس وتمكّنوا

من دخولها سنة ٤٩٢هـ، فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً، وخاضت خيولهم ببحرٍ من الدماء، وانتُخب غودفري ملكاً علىٰ بيت المقدس، وأخذ لقب (حامي قبر المسيح).

لما رأىٰ العبيديون في مصر تقدّم الصليبيين من الشمال أسرعوا وتقدّموا من الجنوب، ودخلوا القدس وطردوا السلاجقة منها وذلك قبل وصول الصليبيين إليها، فلما وصل الصليبيون والقدس هدفهم جرت مفاوضات بين الطرفين ما دامت الغاية مشتركةً وهي إزالة المسلمين، وجرىٰ الاتفاق علىٰ أن يكون شمالي بلاد الشام للصليبيين بما فيها القدس وجنوبيها للعبيديين، ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر، وأن العبيديين لا يمكنهم الإسراع في إظهار هدفهم ما داموا يحكمون شعباً مسلماً.

لقد فقدت هذه الحملة الصليبية أكثر مقاتليها إذ جاء ثلاثمائة ألف مقاتلٍ ودخلوا القدس بأربعين ألف مقاتلٍ، ومهما بالغنا بعدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلىٰ مدينة الرها فإن عددهم لا يزيد علىٰ أربعين ألفاً، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولىٰ ما يقرب من ثمانين ألفاً، ويكون قد فقدوا مائتين وعشرين ألفاً، قُتلوا في

المعارك، وقد قُتل أكثرهم بأيدي الناس الذين كانوا يثورون علىٰ تصرف هؤلاء القادمين الحاقدين، يثورون علىٰ كرهٍ، ورغم خوفهم الشديد، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرّف الصليبيين كان علىٰ درجةٍ من السوء والوقاحة والقبح ما يثير أية نفسٍ مهما بلغ بها الذلّ والخوف.

وبسيطرة الصليبيين علىٰ بيت المقدس ارتفعت معنويات الصليبيين أينما كانوا، فبدأت سفن الإمارات الإيطالية تجوب البحر المتوسط، وتقدم المساعدات والدعم للصليبيين، فاستطاعوا أن يحتلّوا حيفا وقيسارية سنة ٤٩٤هـ، واحتلّوا عكا سنة ٤٩٧هـ، وأخذوا طرابلس الشام سنة ٥٠٣هـ بعد حصارٍ دام سنتين، كما أخذوا جبلة في السنة نفسها، ثم احتلّوا صيدا سنة ٥٠٤هـ، وطلب المسلمون هدنةً فرفض ذلك الصليبيون، ثم وافقوا مقابل مبالغ كبيرةٍ من الأموال يدفعها لهم المسلمون، وبعد أن استلموا الأموال غدروا بالمسلمين وذلك سنة ٥٠٤هـ، وحاصر الصليبيون مدينة صور سنة ٥٠٥هـ، فأمد طغتكين صاحب دمشق أهل صور بالمؤن والمساعدات فامتنعت مدينة صور عن الصليبيين، هذا من جهة الساحل حيث تأتي المساعدات للصليبيين بحراً.

أما من جهة الداخل، فقد تقدّم الصليبيون إلىٰ جهة دمشق، فالتقىٰ بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم الذين وصل بعضهم إلىٰ مدينة (ملاطية)، وقد استطاع أن يدخلها عنوةً وذلك سنة ٤٩٣هـ.

وهاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال سنة ٤٩٧هـ لكنهم هُزموا، وأُسر أمير (الرها) الصليبي، غير أنهم استطاعوا في السنة نفسها أن يدخلوا حصن أفاميا بين حماة واللاذقية.

لقد قلّ عدد الصليبيين في بلاد الشام لكثرة ما قُتل منهم، وتوزّعوا علىٰ شريطٍ طويلٍ من الرها ـ أنطاكية ـ طرابلس ـ بيت المقدس، وطلبوا معونةً من أوربا والكنيسة فلم تصل إليهم بالسرعة التي كانوا يرغبون، ولا بالقوة التي كانوا يطلبون، إذ وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى الشام سنة ٥٤١هـ أي بعد الحملة الأولىٰ باثنتين وخمسين سنةً.

وتحرّكت فكرة الجهاد في نفوس المسلمين، ونشأت قوة جديدة عملت علىٰ وحدة كلمة المسلمين تحت راية الخلافة، وبرز عماد الدين (زنكي) فأخذ يعمل لجمع المسلمين، ويُثير المسلمين بالدعوة إلىٰ

الجهاد، فأخذ الضعف يحلّ بالصليبيين وينهزمون أمام المجاهدين، واستطاع محمود نور الدين بن عماد الدين زنكي أن يدخل (أعزاز) و(عينتاب) و(مرعش) و(حصن أفاميا)، و(شيزر) و(بعلبك)، وحاول الصليبيون دخول دمشق فاستنجد صاحبها مجير الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، فأنجده وقهر الصليبيين، ودخل دمشق وحصر الصليبيين في الساحل وبيت المقدس، ولم تعُد أوربا تُفكّر بإرسال حملةٍ جديدةٍ إلىٰ بلاد الشام لدعم الصليبيين هناك.

واستطاع صلاح الدين الأيوبي الانتصار علىٰ الصليبيين في حطين يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ، ثم دخل القدس عنوةً في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ. فتعالت الصيحات في أوربا لمسير حملةٍ صليبيةٍ فسارت سنة ٥٨٥هـ، وتكررت بعد ذلك الحملات إذ جاءت سنة ٥٩٤هـ، و٦١٥هـ، و٦٢٥هـ، و٦٣٧هـ، و٦٣٩هـ، و٦٤٦هـ، أي كانت تسع حملاتٍ صليبيةً، ولكن كان أثرها محدوداً، واستمرّ وضع الصليبيين بالتراجع، وفي الوقت نفسه كانت تنمو فكرة الجهاد عند المسلمين، ويزداد العمل إلىٰ اجتماع كلمتهم، فالأعداء بينهم معتدين ظالمين غزاةً حاقدين.

في هذه الأثناء، يظهر المغول الوثنيون في ناحية

المشرق، وهم همج لا يعرفون حلالاً ولا حراماً، ولاحقاً ولا باطلاً، تغلب عليهم الوحشية يندفعون كالبهائم، وكان الصليبيون لا يزالون في الشام لكن وضعهم مهدد وحالهم في تراجعٍ غير أن معنوياتهم قد تحسّنت عندما سمعوا بأخبار المغول وتقدّمهم وما هم عليه من الغلظة والوحشية، فارتفع عندهم الأمل وعملوا علىٰ الاتصال بهم، وإيجاد رابطة معهم، فغدوا يرسلون إليهم الفتيات الجميلات والنساء الفاتنات المدرّبات ذوات الخبرة والحنكة والخبث والدهاء، يذهبن إلىٰ المغول حليلاتٍ أو خليلاتٍ فأساليب الكفر معروفة، ووسائله خسيسة، وأعماله ذليلة، ومهمة النساء الأساسية الإغراء والتأثير لتشجيع المغول علىٰ الهجوم علىٰ ديار الإسلام وإطماعهم في ذلك لما فيها من خيراتٍ، وما تحوي من إمكاناتٍ، هناك حيث يجدون السعادة، ويملكون أسباب الغنىٰ، فيعرفون الراحة والطمأنينة، ويعرفون الرفاهية والخير الذي لا يُنسىٰ، والسلطان الذي لا يزول.

أدّت نساء الصليبيين دورهنّ عند المغول، فشجّعوهم تشجيعاً كبيراً للاندفاع نحو بلاد المسلمين، وأوجدوا عندهم كرهاً كبيراً للإسلام وأهله، وحرصاً للفتك بسكان تلك البلاد.

تابع المغول اندفاعهم نحو الغرب إلىٰ بلاد المسلمين، وكان تقدّمهم وقتالهم بوحشيةٍ كبيرةٍ وفظاظةٍ بشعةٍ تُضعف مرضىٰ القلوب، وتُخيف ضعاف الإيمان، وتُرهب الجبناء فيهربون قبل وصول المغول إليهم أو يُولّون الأدبار عند اللقاء بهم، أما أقوياء الإيمان، أصحاء القلوب، الرجال الأبطال فلا تُرهبهم قوة، ولا تُخيفهم وحشية، ولا يُبالون بكثرةٍ، ولا يُهمّهم مغول أو تتار بل ينقضّون عليهم فيولّون الأدبار، أو يندفعون نحوهم يبتغون رضا الله فينصرهم الله عليهم. غير أن ضعف الأمة، وكثرة الأعداء، وتعدّد الجبهات قد قوّت المغول فاتجهوا أخيراً نحو قاعدة خلافة المسلمين مدينة بغداد، عاصمة الدولة العباسية، واستطاعوا دخولها في ١٩ المحرم سنة ٦٥٦هـ بممالأة الوزير ابن العلقمي أحد الذين يظهرون الإسلام بأفواههم، وقلوبهم ضدّه، ويعملون مختلف الوسائل لتهديم أركانه، وقتل أبنائه، ودعم أعدائه.

سقطت بغداد قاعدة الخلافة الإسلامية، فكان ذلك اليوم عيداً عند الصليبيين وأعداء الإسلام عامةً؛ فعمّت عندهم الأفراح، وأُقيمت الاحتفالات إذ سقطت الخلافة، والخلافة جامعة وحدة المسلمين، وموحّدة كلمتهم، ومنظّمة صفوفهم، ورافعة راية الجهاد.

تابع المغول زحفهم نحو الشام فاستولوا علىٰ حلب في شهر صفر سنة ٦٥٨هـ، واندفعوا نحو دمشق، ووصلوا إليها، وألقىٰ هولاكو الحصار عليها في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، وشدّد الحصار حتىٰ استسلمت بعد شهرٍ أي في شهر ربيع الثاني، أما القلعة فقد صمدت شهرين آخرين حتىٰ ٢١ جمادىٰ الآخرة من السنة نفسها، واتجه هولاكو بعد ذلك نحو أنطاكية، لكن جاءه خبر وفاة أخيه (مانغو) خان المغول الأعظم، فغادر هولاكو بلاد الشام بعد أن ولّىٰ عليها مكانه القائد (كتبغانوين).

بعد أن سقطت دمشق بيد المغول أرسل هولاكو وفداً إلىٰ الأمير المملوكي سيف الدين قطز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد سيف الدين قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم علىٰ الحرب إذْ نشطت الهمة، وظهرت فكرة الجهاد، فقبض سيف الدين قطز علىٰ رجال وفد هولاكو وأعدمهم، وعرض أجسادهم للناس، وأخذ سيف الدين يستعدّ للجهاد فيحشد الحشود، ويأخذ الدعم المادي حتىٰ تمّ الاستعداد، فأرسل حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلىٰ جهات غزة، فانتصر علىٰ حملةٍ مغوليةٍ متقدّمةٍ، وهدّد سيف الدين قطز الصليبيين إن بدرت

منهم أية بادرة شرّ، وطلب منهم أن يكونوا علىٰ الحياد إن لم ينصروا المسلمين. ولم يكن وضعهم يومذاك بالذي يساعدهم علىٰ التحرّك سواء إلىٰ جانب المسلمين أم إلىٰ جانب المغول. ووافىٰ الأمير سيف الدين قطز قائده الظاهر بيبرس عند (عين جالوت) في منطقة فلسطين بين (نابلس) و(بيسان)، وتدفّق المغول إلىٰ ذلك الميدان، واحتدمت المعركة، فتقدّم أمير الجيش الإسلامي (سيف الدين قطز) وألقىٰ بخوذته علىٰ الأرض، وصاح بأعلىٰ صوته «واإسلاماه»، واندفع نحو المغول يُقاتل، والتفّ حوله جند المسلمين، وانقضّوا علىٰ المغول، فأفنوهم عن بكرة أبيهم إلا من تمكّن من الفرار، وقد قُتل قائد المغول (كتبغا) في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

ووصلت أخبار معركة (عين جالوت) إلىٰ دمشق فابتهج المسلمون، وانطلقوا يهاجمون المغول، ويعملون بهم ذبحاً، وشملت هذه المذبحة النصارىٰ من أبناء البلاد أيضاً الذين وقفوا بجانب المغول وأعانوهم علىٰ المسلمين، واستأسدوا علىٰ المسلمين أثناء حكم المغول، ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول سيف الدين قطز إليها في ٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ أي بعد استسلام قلعتها للمغول بثلاثة أشهرٍ وستة أيامٍ،

وهذه المدة هي التي حكم فيها المغول دمشق. وبدأ المغول يفرّون من الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكّن سيف الدين قطز من فتح الشام وأخذها من أيدي المغول بعدة أسابيع.

الخلافة في مصر

اتجهت الأنظار نحو مصر قاعدة المماليك، وأصبح للماليك دعاية واسعة بانتصارهم علىٰ المغول، ورفعهم راية الجهاد بعد الرجوع إلىٰ الدين، ورسوخ الإيمان في القلوب بعد الهجوم الصليبي علىٰ المسلمين من الغرب، والغزو المغولي الوثني الوحشي من الشرق، ودعم النصارىٰ الذين عاشوا في كنف المسلمين وفي ذمتهم وعلىٰ عهدهم منذ فجر الإسلام إلىٰ كلا العدوّين الصليبي والمغولي، والحقد الواضح الذي بدا منهم، كل هذا جعل المسلمين ينتبهون إلىٰ واقعهم ويعودون قليلاً إلىٰ دينهم، كما كانت دعوة الخلافة والمسؤولين إلىٰ وحدة صفوف المسلمين للوقوف في وجه الأعداء، فلما سقطت الخلافة العباسية في بغداد علىٰ أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ قام المماليك يحملون عبء الجهاد، وقد انتصروا علىٰ المغول، وأخرجوهم من الشام، وهذا ما جعل الأنظار تتجه إليهم وإلىٰ دولتهم، وقد أقبل إلىٰ مصر أحد أبناء الأسرة العباسية التي كانت بيدها الخلافة وذاك هو (أحمد أبو

القاسم) بن الخليفة العباسي الظاهر الذي تسلّم الخلافة في بغداد (٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ) فهو أخو الخليفة العباسي المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) وعمّ الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ).

كان أحمد أبو القاسم عندما اقتحم المغول بغداد داخل السجن، فلما فتح السجّانون أبواب السجون، أُطلق أحمد أبو القاسم فهرب، واستطاع أن يهرب من بغداد، واتجه إلىٰ أعراب العراق، وبقي عندهم مدةً فلما انتصر المماليك في عين جالوت علىٰ المغول، ثم طردوهم من الشام توجّه أحمد أبو القاسم إلىٰ القاهرة فوصل إليها في أوائل رجب سنة ٦٥٩هـ فأثبت نسبه فبايعه الظاهر بيبرس بالخلافة لترتفع مكانة دولة المماليك وتتجه إليها أنظار المسلمين عامةً، فخُطب له، ونُقش اسمه علىٰ السكّة، ولُقّب بـ(المستنصر بالله) علىٰ لقب أخيه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ودعا للسلطان الظاهر بيبرس، ثم صلّىٰ بالمسلمين.

وهكذا عادت الخلافة بعد انقطاعٍ دام ثلاث سنواتٍ إثر سقوطها عندما دخل المغول بغداد قاعدة الخلافة العباسية، وكان هذا الانقطاع (٦٥٦ ـ ٦٥٩هـ)، وكذا عادت الأسرة العباسية نفسها التي كانت تقوم بالخلافة إلىٰ تسلّمها، ولكن في القاهرة وليس في بغداد.

قرّر الخليفة الجديد (المستنصر بالله) السير إلىٰ العراق وقتال المغول الذين فعلوا بالمسلمين ما فعلوا، سار الخليفة وخرج معه السلطان الظاهر بيبرس يُشيّعه حتىٰ دمشق، وجهّزه بجيشٍ، وانضمّ إلىٰ هذا الجيش الملوك في بلاد الشام، وصاحب سنجار، والخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن أحد أبناء الأسرة العباسية القائمة بالخلافة نفسها الذي بويع في حلب وقد تنازل للمستنصر بالله بسبب أنه أكبر منه سناً، وأكبر صلةً بأواخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولا يصحّ قيام سوىٰ خليفةٍ واحدٍ في ديار الإسلام، وسار معه تحت لوائه.

استطاع الخليفة المستنصر بالله أن يدخل ـ بإذن الله ـ مدينة (الحديثة) علىٰ نهر الفرات بالعراق إلىٰ الغرب من مدينة (سامراء) التي تقع علىٰ نهر دجلة، ثم سار إلىٰ مدينة (هيت) وتقع علىٰ نهر الفرات أيضاً إلىٰ الجنوب من مدينة (الحديثة) فدخلها أيضاً، والتقىٰ بعدها بجيشٍ من المغول، وجرت معركة بين الطرفين قُتل فيها الخليفة المستنصر، ونجا منها الخليفة الحاكم بأمر الله مع عددٍ قليلٍ من أنصاره وذلك في الثالث من المحرم سنة ٦٦٠هـ، وبذا كانت خلافة المستنصر بالله دون ستة أشهرٍ بعشرة أيامٍ.

اتجه الحاكم بأمر الله بعد أن نجا من المعركة قرب مدينة هيت إلىٰ بلدة (الرحبة) ومنها إلىٰ عيسىٰ بن مهنا بمدينة دمشق، فراسل عيسىٰ بن مهنا السلطان الظاهر بيبرس بشأن الحاكم بأمر الله فطلبه فسار إلىٰ القاهرة، ومعه ولده، ومجموعة من أتباعه، فأكرمه السلطان الظاهر بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة، وخطب بمسجدها عدة مرات. وبعد أن أثبت نسبه بايعه السلطان، وقاضي القضاة، والعلماء، وبقية الناس وذلك في مطلع سنة ٦٦١هـ، وكان المماليك حريصين علىٰ بقاء دولتهم مقرّ الخلافة الإسلامية لما في ذلك من إعطاء أهميةٍ لدولتهم حيث تكون محطّ أنظار المسلمين جميعاً أينما كانوا.

عادت الخلافة إذن لمدينة القاهرة بعد أن فقدتها ما يقرب من سنة (٦٦٠ ـ ٦٦١هـ) ورجعت الخلافة الإسلامية.

أصاب أعداء الإسلام الأسىٰ بعودة الخلافة الإسلامية إذ هي التي تجمع شمل المسلمين، وتُوحّد كلمتهم، وتضمّ صفوفهم، وترفع راية الجهاد، وتُعطي عنوان وحدة الأمة الإسلامية، وهذا كله يعمل علىٰ رفع المعنويات لدىٰ المسلمين من جهةٍ، ويحول دون تقدّم الأعداء نحو أهدافهم؛ بل يُؤدّي بهم إلىٰ الذلّ

والهزيمة، أو إلىٰ الخضوع للمسلمين من جهةٍ ثانيةٍ.

غير أن هذه الخلافة العباسية كانت في مصر في حالةٍ من شبه الغياب، حيث لم يكن هناك دور للخليفة إذ لم يكن سوىٰ صورةٍ، والرأي والتنفيذ للسلطان المملوكي، هذا هو الواقع الذي كان قائماً. كما أن نظرة المسلمين عامةً إلىٰ هذه الخلافة لم تكن تلك النظرة الصحيحة، وذلك لأن أصحاب الأمر والنهي هم سلاطين المماليك، والمماليك تعني العبيد فأي نظرةٍ تكون لعبيدٍ يحملون اسم سادة وبيدهم الحلّ والعقد، وإليهم يعود الأمر، وترجع كلمة الفصل. ومن هذه النظرة، ومن واقع الحال لم يستطع المماليك أن يُؤدّوا دورهم ولا أن تقوم الخلافة بمهمتها، ومن ذلك جمع المسلمين، وخاصةً أن تلك المرحلة كانت مرحلة ضعف الأمة الإسلامية وتفرقة شملها وانقسام أبنائها.

وقد أدّىٰ المماليك دوراً جيداً لا يُنكر لهم ومن ذلك انتصارهم علىٰ المغول، وإنهاء أمر الصليبيين وطردهم من الشام، وتحقيق بعض الانتصارات علىٰ أعداء الإسلام، وكانت هناك جوانب أخرىٰ منها الخلافات فيما بينهم، وعدم إمكاناتهم بالوقوف أمام البرتغاليين الصليبيين القادمين من الجنوب بحراً، وعدم مواجهة الصفويين الذين تعاونوا مع البرتغاليين الغزاة.

توالىٰ علىٰ الخلافة العباسية في مصر ثمانية عشر خليفةً بمدة أربعٍ وستين ومائتين من السنين مع انقطاع في بداية المدة دام سنةً واحدةً تقريباً (سنة وخمسة أيام) ٦٦٠ ـ ٦٦١هـ.

وجاء العثمانيون فدخلوا مصر، وبويع السلطان سليم الأول العثماني خليفةً للمسلمين بعد أن تنازل له الخليفة المتوكل علىٰ الله «الثالث» محمد بن يعقوب آخر خلفاء بني العباس في القاهرة. وقامت بعدئذ الخلافة العثمانية في إستانبول (٩٢٣ ـ ١٣٤٢هـ).

الخلافة العثمانية

قامت إمارة آل عثمان في الأناضول سنة ٦٨٧هـ بعد وفاة أرطغرل بن سليمان شاه، وقيام ابنه عثمان مكانه، وإلىٰ عثمان هذا ينتسب العثمانيون، وأخذ بالتوسّع، كما أسّس السلطان أورخان بن عثمان الجيش الإنكشاري أي (الجيش الجديد)، ويضمّ أبناء الأسرىٰ، والصغار الذين يقعون في الأسر، فيُربّون في ثكناتٍ عسكريةٍ تربيةً إسلاميةً، ويُدرّبون تدريباً عسكرياً، ويتخرّجون لا يعرفون إلا القتال والحياة والعسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله، فليست هناك روابط قبلية أو قومية أو محلية، ولا يعرفون إلا السلطان سيداً لهم، لذا كانوا قوةً كبيرةً ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم، وامتداد الفتوحات العثمانية بسبب الروح المعنوية العالية التي تتولّد نتيجة الجهاد في سبيل الله والعاطفة الإسلامية، هذا ما كان في بداية الأمر ثم تغيّر بعد مدةٍ نتيجة التغيير وبسبب الضعف الذي نزل بالأمة.

بدأ التوسع العثماني في منطقة الأناضول وفي جنوب شرقي أوربا، وبرزت القوة العسكرية العثمانية

وظهرت في وقتٍ مبكرٍ منذ أيام أورخان بن عثمان حتىٰ طلب إمبراطور القسطنطينية يوحنا الخامس من السلطان العثماني أورخان سنة ٧٥٦هـ مساعدته ضد إمبراطور الصرب إصطفان دوشان الذي تحالف مع إمارة البندقية الإيطالية للهجوم على القسطنطينية، وشجع الإمبراطور البيزنطي السلطان العثماني إذا ساعده أن يزوّجه أخت زوجته، وقد تمّ هذا، ولم ينتبه السلطان إلىٰ أبعاد هذا الزواج علىٰ حين أن الإمبراطور اتخذ هذا الأسلوب كيداً ومكراً بالسلطان. والأصل أن يكون الإنسان علىٰ درجةٍ جيدةٍ من الوعي وخاصةً الذين بيدهم الحلّ والعقد والتوجيه.

شعر السلطان أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب الإمبراطور منه المساعدة للوقوف في وجه الصرب، ورأىٰ السلطان أن ينتقل إلىٰ الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليجاهد بعدها في أوربا، ويتمكّن من الإحاطة بالقسطنطينية والهجوم عليها من الغرب إذ عجز المسلمون من قبل عن فتحها بالهجوم عليها من جهة الشرق، وإن لم يكن هو فمن يأتي بعده، فقرر الجهاد، وأرسل ابنه الكبير سليمان لدراسة الأمر، وفي سنة ٧٥٨هـ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل مع أربعين من أبطاله، ولما وصلوا إلىٰ الضفة الغربية استولوا علىٰ

الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلىٰ الضفة الشرقية فأركب جنده في الزوارق ونقلهم إلىٰ الشاطئ الأوربي، فاستولوا علىٰ المواقع الرومية القائمة علىٰ ذلك الشاطئ.

وفتح العثمانيون مدينة أدرنة سنة ٧٦٢هـ، ونقل السلطان مراد الأول عاصمته إليها ليكون علىٰ مقربةٍ من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم علىٰ القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوةً. كما فتحوا مدينة (فيلبه) قاعدة الروميللي الشرقي (جنوبي بلغاريا اليوم)، وأصبحت القسطنطينية محاطةً بالعثمانيين، وتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعيةً، وقلبه مليء بالأحقاد.

خاف الأمراء الأوربيون الذين أصبح العثمانيون علىٰ حدودهم وعلىٰ مقربةٍ منهم فكتبوا إلىٰ ملوك أوربا الغربية وإلىٰ البابا في روما، يستنجدون بهم ضدّ المسلمين حتىٰ إمبراطور القسطنطينية ذهب إلىٰ البابا، وركع أمامه، وقبّل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبّىٰ البابا النداء وكتب إلىٰ ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدةٍ حفاظاً علىٰ النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد. لكن أمراء أوربا الشرقية لم يتوقّعوا هذا الدعم السريع وبلادهم علىٰ مقربةٍ من العثمانيين، لذا

استنهضوا الهمّة وحشدوا إمكاناتهم، وتقدّموا جميعاً نحو مدينة (أدرنة) قاعدة العثمانيين، وقد استغلّوا اشتغال السلطان العثماني مراد الأول ببعض حروبه في الأناضول، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه والتقىٰ بهم وهزمهم هزيمةً منكرةً. وتزوّج السلطان مراد الأول ابنة أمير البلغار سنة ٧٨٠هـ.

بقي قتال العثمانيين قائماً في الأناضول ما دامت توجد هناك إمارات مستقلة تريد التوسّع كما تريد الثأر والانتقام من العثمانيين الذين يهزمونها أحياناً إذا وقعت حرب بينهما، وفي الوقت نفسه يستغلّ الأمراء الأوربيون اشتغال العثمانيين بالقتال في الأناضول، فيقومون بالهجوم علىٰ البلدان التي تقع تحت النفوذ العثماني، فيضطر العثمانيون للانتقال إليهم، وغالباً ما ينجح العثمانيون ويحرزون النصر، ولكن تتحرّك الصليبية في أوربا وتظهر أحقادها.

عمل العثمانيون علىٰ إنهاء موضوع الإمارات في الأناضول وحقّقوا انتصاراتٍ عليها، وضمّوا أكثرها إلىٰ دولتهم. وحاصر السلطان بايزيد الأول مدينة القسطنطينية سنة ٧٩٤هـ، وضيّق الحصار عليها، ولم يرفع الحصار عنها مدة أربع سنواتٍ (٧٩٤ ـ ٧٩٨هـ) بعد أن عقد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة دفع الإمبراطور

بموجبه ما يعادل عشرة آلاف دينارٍ ذهبيٍّ، وسمح للمسلمين ببناء مسجدٍ لهم في القسطنطينية.

ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات العثمانية إلىٰ ملك المجر استنجد بالبابا وبملوك أوربا، وأعلنها البابا حرباً صليبيةً، ولكن العثمانيين انتصروا عليهم.

انتصر تيمورلنك علىٰ العثمانيين في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ، ووقع السلطان بايزيد الأول العثماني وابنه موسىٰ في الأسر، وفرّ من المعركة أبناؤه: سليمان وعيسىٰ ومحمد. واختفىٰ ابنه الآخر مصطفىٰ، وتابع تيمورلنك تقدّمه نحو الغرب، ولما أراد الرجوع أعاد الإمارات التي كانت قائمةً قبل أن يضمّها العثمانيون إليهم.

ولما رأت الإمارات الأوربية التي كانت خاضعةً للعثمانيين ما حلّ بالدولة وسلطانها أعلنت استقلالها، وهي: الصرب، والبلغار، والأفلاق.

استطاع السلطان مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) أن يُعيد لدولته وضعها في الأناضول وفي أوربا، حتىٰ ظنّ السلطان أن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول ولا في أوربا، وأن بإمكانه الآن التوجّه إليه وإلزامه علىٰ الاستسلام، وفتح القسطنطينية عسىٰ أن

يكون مغفوراً له، كما بشّر بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «لتفتحُنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1].

لكن السلطان عاد فهُزم جيشه في ترانسلفانيا وقُتل قائده، فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانين ألفاً غير أنه هُزم أيضاً وأُسر قائده سنة ٨٤٥هـ، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلىٰ بلاد الصرب فالتقىٰ سنة ٨٤٦هـ بالسلطان مراد الثاني، فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلىٰ توقيع معاهدةٍ تنازل فيها عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنواتٍ.

كان البابا يراقب الأحداث، وكم سرّه هزيمة السلطان، وخاصةً أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولندا، وألمانيا، وفرنسا، والبندقية، وجنوه، وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقّعها السلطان مع المجريين، وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنواتٍ؛ لذا فقد أرسل مندوباً من قبله وهو (سيزاريني) إلىٰ ملك المجر، وطلب منه نقض

---

(١) رواه أحمد والحاكم في المستدرك عن بشر الغنوي.

العهد، وقال: ليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية إذ ليس مع الكفار المسلمين نقض لعهدٍ أو حنث بقسمٍ.

تنادىٰ ملوك النصارىٰ لشنّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ فجمعوا جموعهم، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم علىٰ ذلك غياب السلطان إذ كان معتزلاً وابنه صغيراً لم يتمرّس بعد علىٰ القتال، فلما وصل الخبر إلىٰ السلطان غادر مكانه، واتجه إلىٰ أوربا وقاد الجيش، وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة علىٰ ساحل البحر الأسود، فنازلهم، وقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختلّ ترابط الصليبيين، فهاجم السلطان معسكر الأعداء واحتلّه، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتمّ النصر للمسلمين في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨هـ، وبعدها ترك السلطان الأمر إلىٰ ابنه محمد الثاني (الفاتح)، ورجع هو إلىٰ مكان عزلته في (مغنيسيا).

وعندما همّ محمد الفاتح بدخول القسطنطينية، وعرف الإمبراطور قسطنطين ذلك عرض دفع الجزية التي يريدها السلطان محمد الفاتح فأبىٰ السلطان ذلك، ورأىٰ أن يتزوج أرملة السلطان مراد الثاني أم محمد الفاتح وكانت لا تزال علىٰ نصرانيتها، فرفضت واعتكفت في

بعض الأديرة، فبدأ الإمبراطور يستنجد بالدول النصرانية، فأرسل له البابا ثلاثين سفينةً حربيةً، ولكنها هربت من القرن الذهبي، وطلب النجدة من روسيا، ولكن لم يصل إليه أي دعمٍ من الروس، وجاءته قوة بحرية كبيرة بقيادة (جوستنيان) من إمارة جنوه الإيطالية، ثم أسرع السلطان محمد الفاتح وحاصر مدينة القسطنطينية، وبدأ الهجوم عليها يوم ١٠ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨٥٧هـ وتمكّن من دخولها، وحوّل كنيسة (أيا صوفيا) إلىٰ مسجدٍ، وسمح للنصارىٰ بإقامة شعائرهم دون معارضةٍ، وأعطاهم نصف كنائسهم، وحوّل النصف الآخر إلىٰ مساجد، وأقام العدل فرجع النصارىٰ الذين فرّوا، وأطلق علىٰ القسطنطينية اسم مدينة الإسلام (إستانبول).

دخل محمد الفاتح بلاد الصرب، وبلاد المجر، وبلاد الموره، وجزر بحر إيجه، وموانئ: اماستريس، وسينوب، وطرابزون وهي علىٰ البحر الأسود، وضمّ الأفلاق إلىٰ الدولة العثمانية.

بدأ البابا يدعو إلىٰ حربٍ صليبيةٍ، ولكنه مات ولم تسر الجيوش.

ضمّ محمد الفاتح إمارة القرمان في الأناضول إلىٰ

الدولة العثمانية، وهزم التتار الذين هاجموا شرقي الدولة العثمانية.

فتح السلطان محمد الفاتح مدينة (أوترانت) في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا.

وقع قتال بين السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح وبين المماليك حكام مصر والشام والذين كان لهم نفوذ في الإمارات في الأناضول.

وحارب العثمانيون إمارة البندقية الإيطالية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بالبابا وملك فرنسا فأنجداها وكانت حرباً صليبيةً بين الطرفين.

وبدأت الدول تتقرب من الدولة العثمانية، وتطلب عقد الأحلاف معها للإفادة منها في قتال أعدائها، وهذا بعد أن ظهرت قوة الدولة العثمانية.

كان همّ السلاطين العثمانيين فتح مدينة القسطنطينية لينالهم دعاء رسول الله ﷺ ـ كما سبق أن ذكرنا ـ «لتفتحُنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» قبل كل شيء، ثم لإزالة هذا العائق وفتح الطريق أمامهم للجهاد في أوربا والدعوة إلىٰ الإسلام هناك. وكان لا بدّ من تذليل الصعاب في سبيل هذه المهمة، وهو القضاء علىٰ

الإمارات التي كانت قائمةً في الأناضول وذلك لتوحيد جهود المسلمين أولاً، وكي لا يبقىٰ سند للروم فيما إذا أرادوا الاعتماد علىٰ بعض الرجال الذين يُفضّلون مصالحهم علىٰ مصالح الأمة، وكانت مهمة السلاطين الثانية هي التقدّم في أوربا للغاية نفسها وإسقاط كل دعمٍ يُفكّر فيه الروم، وخاصةً أن الصليبية الأوربية كانت سنداً لكل تجمعٍ نصرانيٍّ مهما كان مركزه أو عدده.

كان اهتمام السلاطين العثمانيين بالأمة الإسلامية ضعيفاً رغم فكرة الجهاد التي حملوها من أول عهدهم، ورغم أن أوربا قد وقفت في وجههم باسم الصليبية، وكان البابا هو المحرك الرئيسي لقتال العثمانيين لحماية النصرانية ـ علىٰ حد زعمه ـ فكان يرسل النداءات لملوك أوربا وأمرائها للوقوف أمام الدولة العثمانية. وإن عدم اهتمام السلاطين العثمانيين بالأمة الإسلامية أنهم كانوا يشعرون أن سلطنتهم ضعيفة وصغيرة ولا تُشكّل ثقلاً عظيماً في الأوساط العالمية، أو بين الدول القائمة آنذاك، ويرون أن دولة المماليك أقوىٰ منهم، وهي مركز الخلافة وعليها تقع المسؤولية الأولىٰ في هذا المجال، مع أن العثمانيين كانوا يتصورون في أن الضغط علىٰ أوربا من جهة الشرق يُخفّف الضغط عن

مسلمي الأندلس مما يعانونه من حربٍ صليبيةٍ مع أن مسلمي الأندلس قد وصلوا آنذاك إلىٰ مرحلةٍ من الضعف لا يُجدي معها دعم، ولا ينفع معها مدّ، وكان ملوك الطوائف المسلمون يستنجدون بطغاة نصارىٰ الإسبان بعضهم ضد بعضٍ، وقد سقطت غرناطة آخر معقلٍ للمسلمين بيد النصارىٰ الإسبان سنة ٨٩٧هـ، وكان سلطان العثمانيين يومذاك بايزيد الثاني والد السلطان العثماني سليم الأول آخر السلاطين وأول الخلفاء العثمانيين.

لم يكن هناك صراع عنيف بين العثمانيين وبين الدول المسلمة المحيطة بهم من الجنوب والشرق، وذلك لأن العثمانيين كانوا منصرفين إلىٰ القضاء علىٰ الإمارات التي كانت قائمةً في الأناضول، وعلىٰ فتح القسطنطينية وعلىٰ التقدّم في أوربا.

قيام الخلافة العثمانية:

تنازل السلطان بايزيد الثاني عن السلطة لابنه سليم بدعمٍ من الإنكشارية، وكان سليم الأول ذا شخصيةٍ قويةٍ، وطبيعةٍ عسكريةٍ، فيرىٰ أن الأمور المستعصية لا تحلّها إلا القوة، وقد رأىٰ أن دولته قد أصبحت أقوىٰ الدول الإسلامية آنذاك لذا كان عليه أن يقوم بالمهمة

الملقاة علىٰ عاتقه في وحدة أبناء الأمة المسلمة، ورأىٰ أن الأندلس قد سقطت بيد النصارىٰ الإسبان، ولم يعد هناك من فائدةٍ للضغط علىٰ أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الغرب (الأندلس). ورأىٰ أن أوربا تجمعها النصرانية فتقف مجتمعةً ضدها وتُقاتلها متفقةً رغم ما بين دولها من اختلافاتٍ سياسيةٍ، وتباينات مذهبيةٍ، وصراعاتٍ علىٰ المستعمرات، ومنافساتٍ علىٰ المصالح، ومع ذلك تجمعهم الصليبية؛ فما علىٰ أمة الإسلام إلا أن تلتقي وهي أمة واحدة إذ لا يمكن مواجهة الصليبية إلا بجمع الأمة، لذا يجب أن يخضع المسلمون لدولةٍ واحدةٍ، وهذا الخضوع يجب أن يكون للعثمانيين بصفة أن دولتهم أقوىٰ الدول الإسلامية القائمة آنذاك، فدولة المماليك قد ضعف أمرها، ولم تتمكّن من تأدية دورها في مواجهة البرتغاليين الصليبيين الذين قدموا علىٰ المسلمين من الجنوب، وأن الخلافة العباسية في مصر ليست سوىٰ خلافةٍ صوريةٍ يتصرف بها المماليك كيف يشاءون.

ورأىٰ السلطان سليم الأول أن البرتغاليين يُهدّدون العالم الإسلامي من جهة الجنوب، ويُهدّدون باحتلال المدينة المنورة وأخذ رفاة النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ وعدم تسليمها، حتىٰ يتخلّىٰ المسلمون عن

القدس ويسلّموها للنصارىٰ، وقد عجز المماليك عن مقاومة البرتغاليين، وفوق هذا فإن هؤلاء البرتغاليين قد وجدوا لهم أعواناً بين بعض (المسلمين)، إذ طلب الصفويون من البرتغاليين أن يُشكّلوا معهم حلفاً ضد العثمانيين بل ضدّ أهل السُّنّة من المسلمين، ورأىٰ أن موقف الصفويين في الخليج ضد البرتغاليين كان موقفاً فيه كثير من الميوعة.

ورأىٰ السلطان سليم الأول أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرّشون بالعثمانيين من جهة الشرق، ويحاولون التوسّع، كما يعملون علىٰ نشر مذهبهم ليصبح أتباعه أعواناً لهم، فقد دخل الشاه إسماعيل (ديار بكر)، وجعل عاصمته (تبريز) القريبة من الدولة العثمانية، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسّعهم، كما ساعد الأمير أحمد بن السلطان بايزيد الثاني ضد والده السلطان، ثم ضد أخيه السلطان سليم الأول، فلما تمكّن السلطان من أخيه كان لا بدّ من ضرب من كان يدعمه ويُحرّضه.

أمام هذه المرئيات وجد السلطان سليم أن يحسم الأمور بالعمل العسكري، وقرّر أن يسير نحو الصفويين ليُؤدّبهم ويُبعدهم عن البرتغاليين، ثم يتحالف مع

المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين فإن أبىٰ المماليك التفاهم احتلّ بلادهم، ووقف أمام البرتغاليين يجاهدهم، وخاصةً أنها حرب صليبية واضحة يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن ساعدوا علىٰ إخراجهم من الأندلس. وفي الوقت نفسه يكون قد قطع مرحلةً في وحدة المسلمين بضمّ أجزاءٍ واسعةٍ إلىٰ دولته، وكلها أقسام من بلاد المسلمين، وربما شجّعه علىٰ ذلك ضعف دولة المماليك، وخوف السكان من البرتغاليين الصليبيين، وسمعة العثمانيين التي ارتفعت بين المسلمين بعد قتالهم الصليبيين في أوربا ودخولهم أجزاء منها ونشر الإسلام فيها ـ وإن كان علىٰ مستوىً قليلٍ ـ، وأمل المسلمين في قدوم العثمانيين لمنازلة البرتغاليين.

اتجه السلطان سليم الأول علىٰ رأس جيشٍ إلىٰ الصفويين، وانتصر عليهم في معركة (جالديران) جنوب مدينة (قارص) في شرقي الأناضول في الثاني من شهر رجب سنة ٩٢٠هـ، وفرّ من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد عشرة أيامٍ دخل السلطان مدينة (تبريز) عاصمة الصفويين، واستولىٰ علىٰ الخزائن، ونقلها إلىٰ إستانبول، وتتبع الشاه، ولكن لم يتمكّن من القبض عليه.

أخذ السلطان سليم الأول يستعدّ لحرب المماليك

بعد أن ضرب الصفويين، وكان المماليك قد تحالفوا مع الصفويين، كما أن العثمانيين يختلفون مع المماليك بشأن إمارة (ذي القادر) علىٰ الحدود بين الطرفين، والتي قاعدتها مدينة مرعش، وقد شجّع السلطان سليم علىٰ الحرب مع المماليك وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين، ولم يجدوا في المماليك القدرة علىٰ المقاومة، وظهور العثمانيين كقوةٍ ضخمةٍ اكتسحت أجزاء من أوربا.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، كما اتجه سلطان المماليك قانصوه الغوري نحو بلاد الأناضول، والتقىٰ الطرفان في (مرج دابق) شمال غربي مدينة حلب، والتحم الجيشان يوم الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ، وقد هُزم المماليك وقُتل السلطان (قانصوه الغوري)، ودخل السلطان سليم حلب، وحماه، وحمص، ودمشق دون مقاومةٍ.

تابع السلطان سليم الأول سيره نحو مصر، والتقىٰ مع المماليك في معركةٍ ثانيةٍ عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك، ودخل العثمانيون مدينة غزة، وتابع العثمانيون سيرهم في مصر باتجاه القاهرة، وفي اليوم الأخير من سنة ٩٢٢هـ التقىٰ الطرفان في معركة الريدانية علىٰ أبواب القاهرة، وقد انتصر العثمانيون ودخلوا

القاهرة في الثامن من شهر المحرم سنة ٩٢٣هـ.

تنازل الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة للسلطان سليم الأول، كما جاءه محمد أبو نمي بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة. وهكذا انتقلت الخلافة الإسلامية من العباسيين في القاهرة إلى العثمانيين في إستانبول، وأصبح السلطان سليم الأول العثماني خليفةً للمسلمين.

سافر الخليفة الجديد سليم من مصر متجهاً نحو الأناضول عن طريق الشام، وقد عيّن خايربك حاكماً على مصر، وترك عنده حامية من الإنكشارية، واصطحب معه إلى إستانبول الخليفة السابق محمد المتوكل على الله.

أخذ الخليفة العثماني سليم الأول يستعدّ لمحاربة الصفويين.

وصلت أخبار انتقال الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى إستانبول إلى أوربا فتحرّكت الصليبية، وثارت الأحقاد، وظهر الخوف إذ اقترب مركز الخلافة الإسلامية من أوربا التي غدت جبهةً للجهاد، وغدا أهلها هدفاً للدعوة ولا يمكن الوقوف أمام المجاهدين لقوة اندفاعهم، وصدق انطلاقهم، وإخلاصهم في

عملهم، وإيمانهم في هدفهم الذي هو إرضاء ربهم بدعوتهم لدينهم الحق الذي أنزله الله علىٰ نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام وكلّفهم بالدعوة له، والعمل لإبلاغه للبشر كافةً، ووعدهم بالنصر في الدنيا والوصول إلىٰ الجنة في الآخرة، وقد آمنوا وصدقوا وانطلقوا يبتغون ذلك، فكانوا كالأسود لا يصدّها صادّ وكالسهام لا يحول دونها ساتر، وقد عرف الأوربيون هذا تمام المعرفة من سابق وقوف أعداء الإسلام أمام المجاهدين من بداية انطلاقة الإسلام في صدره الأول.

كما أن البشر لا يحول بينهم وبين اعتناق الإسلام حائل؛ بل هم يندفعون نحوه مؤمنين به معتنقين له لما فيه من حقٍّ واضحٍ، وأثرٍ بيّنٍ من الأمثلة الرائعة الأخلاق ممن قَبِل هذا الدين وأخذه بحقٍّ، وطبّقه بإيمانٍ فالأشخاص أمامهم ماثلين ولأعين الناس ظاهرين، وباندفاعهم للحق لأعين الخلق واضحين، وإقبال سكان البلاد التي دخلها الإسلام إلىٰ هذا الدين لا ينكره الأشهاد، ولا يمكن أن يكذبه إنسان فالشام والأناضول والعراق وأواسط آسيا، ومصر وشمالي إفريقية، والأندلس وجنوب شرقي أوربا، فما أن يدخل المسلمون منطقةً حتىٰ يهرع أهلها إلىٰ الإسلام لما يرون فيه من حقٍّ، وفي رجاله من صدقٍ، وفي حملته من

أخلاقٍ، وهكذا في كل وقتٍ يتمثّل المسلمون دينهم بإيمانٍ ويدعون إليه بإخلاصٍ.

وهذا ما يخافه قادة الأوربيين دينياً وسياسياً فإن بلادهم قد أصبحت علىٰ مقربةٍ من مركز الخلافة الإسلامية قاعدة الجهاد، وبذا فبلادهم سيقتحمها المجاهدون وسيهرع أهلها لقبول الإسلام، وعندها سيزول مجد أباطرتهم، وينتهي دور أساقفتهم فماذا يكون؟. نظر هؤلاء القادة من أباطرةٍ وأساقفةٍ إلىٰ الماضي وتساءلوا: أين البيزنطيون وأباطرتهم وأساقفتهم وما تغطرسوا؟ وأين الفرس وأكاسرتهم ودهاقنتهم وما تجبّروا؟ وأين الأقباط وما تكبّروا؟ وأين القوط وما تعالوا؟ وأين الغساسنة وما ترفّعوا؟ وأين المناذرة وما وضعوا؟ زالوا جميعاً وانتهىٰ أمرهم، وغدا خلفهم مسلمين.

زاد خوف قادة الأوربيين من أباطرةٍ وملوكٍ وأساقفةٍ وبطارقةٍ، فكان اتفاق ضمني في الفكر للوقوف جميعاً ضد العثمانيين المسلمين، وإثارة الأحقاد والنعرة الصليبية، وتولّىٰ الساسة الحشود، وتولّىٰ البابا رفع راية الصليب، والدعوة لترك الخلافات والنزاعات القائمة بين الدول والشعوب.

فتح الخليفة سليمان القانوني مدينة بلغراد، وفتح جزيرة رودوس في ٢ صفر سنة ٩٢٩هـ.

أصبحت شبه جزيرة القرم ولايةً عثمانيةً سنة ٩٣٩هـ حيث ضمتها الخلافة إلىٰ ديارها.

استولىٰ الخليفة سليمان القانوني علىٰ عاصمة الأفلاق.

سار الخليفة سليمان القانوني سنة ٩٣٢هـ علىٰ رأس مائة ألف مقاتلٍ إضافةً إلىٰ ثمانمائة سفينةٍ انطلقت في نهر الدانوب، وانطلق إلىٰ المجر فانتصر عليهم، وقتل ملكهم لويس، ودخل عاصمتهم (بودا) في ٣ ذي الحجة سنة ٩٣٢هـ، غير أنه في العام التالي (٩٣٣هـ) ادّعىٰ الأمر فرديناند أخو ملك النمسا شارلكان أحقيته بمُلك المجر فسار إليها، ودخل عاصمتها (بودا)، وهزم ملكها (جان زابولي) الذي استنجد بالخليفة سليمان فسار إليه سنة ٩٣٥هـ، وحاصر (بودا) وفرّ منها (فرديناند) متجهاً نحو (فيينا) عاصمة النمسا فتبعه، وألقىٰ الحصار علىٰ مدينة فيينا، وأمر بالهجوم عليها في ٢٠ صفر سنة ٩٣٧هـ بعد أن أحدث ثغراتٍ في أسوارها، ولكنه لم يقوَ علىٰ اقتحامها إذ نفذت ذخيرة المدفعية وداهمه فصل الشتاء البارد فقرّر فكّ الحصار والعودة، وفي العام التالي ٩٣٨هـ أرسل ملك النمسا

جيشاً لدخول (بودا) عاصمة المجر غير أنه عجز عن ذلك أمام مقاومة الحامية العثمانية. وعاد الخليفة سليمان نحو فيينا سنة ٩٣٩هـ إلا أنه رجع من الطريق لما علم من استعدادات شارلكان الدفاعية.

تحرّكت الأحقاد الصليبية في أوربا، وتعالت صيحات «المسلمون صاروا في وسط أوربا» فتحرّكت سفن تابعة لشارلكان وبدعم البابا واحتلّت بعض المواقع في شبه جزيرة المورة اليونانية والتابعة للدولة العثمانية.

وتوسّع العثمانيون في هذه المرحلة، إذ دخلوا مدينة تبريز للمرة الثانية وذلك سنة ٩٤١هـ، وجاء إليها الخليفة سليمان القانوني، وسار منها إلىٰ بغداد وفتحها في العام نفسه.

كما امتدّ النفوذ العثماني إلىٰ شمالي إفريقية حيث شمل منطقة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وكانت أساطيلهم وبحّارتهم أمثال خير الدين بربروس وأخيه عروج ينزلون علىٰ شواطئ إيطاليا وفرنسا، وينتصرون علىٰ سفن الدول الأوربية وخاصةً إسبانيا.

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني والي مصر سليمان باشا أن يُجهّز أسطولاً ويتجه لمحاربة الصليبيين البرتغاليين، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي الصليبيين فامتثل سليمان باشا وبنىٰ أسطولاً مؤلفاً

من سبعين سفينةً واتجه به علىٰ رأس عشرين ألف جندي، وفتح عدن، ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز سنة ٩٤٤هـ، ثم انطلق سليمان باشا إلىٰ شبه جزيرة (كوجرات) بالهند بناءً علىٰ طلب سفير كوجرات الذي وصل إلىٰ إستانبول واستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلىٰ سواحل الهند، ووصل سليمان باشا إلىٰ سواحل الهند، ودخل القلاع التي أقامها البرتغاليون علىٰ سواحل الهند، ولكنه هُزم في معركة (ديو) البحرية أمام البرتغاليين، ورجع إلىٰ بلاده، وكانت اليمن قد أصبحت ولايةً عثمانيةً.

بلغت الدولة العثمانية في هذه المرحلة أوج قوتها، أخذ الخط البياني بعدها بالنزول، وذلك أن الصليبية قد قوي أمرها، فكان شبه اتفاقٍ بين دولها لمحاربة المسلمين بمختلف الوسائل. لقد كان هناك تحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا لغزو إيطاليا، فهاج الرأي العام النصراني في أوربا علىٰ فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تقاتل النمسا الدولة النصرانية، فما كان من ملك فرنسا فرانسوا الأول إلا أن خضع للرأي الصليبي، وهادن ملك النمسا، وأخلف بما وعد به العثمانيين من غزوٍ مشتركٍ لإيطاليا.

المخطط الصليبي:

وجد الصليبيون أنه ليس لهم من عملٍ يقومون به ليستطيعوا حماية بلدانهم وشعوبهم من المدّ الإسلامي إذ أن المواجهة للمسلمين صعبة حيث لا تستطيع قوة أن تقف أمام المسلمين لاندفاعهم الشديد وحماستهم العالية وطلبهم الموت (الشهادة في سبيل الله). وبنظراتٍ إلىٰ معارك الماضي، وتفكيرٍ بنتائج القتال، مع محاولةٍ للتحليل وجدوا:

١" ـ أن الإيمان الراسخ في قلوب المسلمين أن دينهم حق وما سواه باطل، وأن دعوتهم إليه واجب وقتالهم في سبيل ذلك أساس، وأن من يُقتل مآله إلىٰ الجنان.

٢" ـ أن فكرة الجهاد هي التي ترفع الروح المعنوية للمقاتلين المسلمين رفعاً عالياً وتجعلهم يُقدمون بصورةٍ بطوليةٍ رائعةٍ تُحقّق ما نراه.

٣" ـ أن الخلافة هي التي تجمع المسلمين، وتُوحّد كلمتهم، وترصّ صفوفهم، وترفع راية الجهاد، وتدفعهم إليه. ولا يصحّ قيام أكثر من خليفةٍ حتىٰ لا تتفرّق الكلمة وتتجزّأ الأمة، وترفع أكثر من رايةٍ للجهاد.

وهذه الموضوعات هي أساس قوة المجاهدين المسلمين وعامل اندفاعهم في القتال وإقدامهم وصبرهم، وإن صدقهم مع الله وإخلاصهم بواجبهم عامل نصرهم ورافع بنيانهم.

أخذ الصليبيون يبحثون في عوامل إضعاف هذه الجوانب عند المسلمين عسىٰ أن ينالوا منهم، ويتفوّقوا عليهم، وقد توصلوا إلىٰ أن الإيمان ذاتي مقرّه القلب يرسخ ويثبت ما ابتعد صاحب القلب عن مغريات الدنيا ومتطلبات النفس، ويضعف إذا أقبل صاحبه علىٰ ذلك وسعىٰ وراء ما تشتهي نفسه. وأن مغريات الدنيا هي: المكانة، والمال، والجنس، وهذه أمور يمكن تأمينها وبذلها، كما يصعب دفعها والبعد عنها، والتأثير الخارجي من تذكير أهل العلم، وتوجيه الأهل والسلطان له أثره البيّن ولكن لا يظهر عندما يزداد الانتشار ويتسع النطاق.

وأما الجهاد فإن أثر المغريات أضعف لأن الجهاد عام وليس بذاتيٍّ كالإيمان، فللمجتمع أثره وللحميّة دورها.

وأما الخلافة فليس عليها من تأثيرٍ فرديٍّ لأنها هي السلطة ومرتبطة بأهل الحلّ والعقد من علماء الدين وقادة المجتمع.

بدأ الصليبيون بتقديم مغريات الدنيا أمام المسلمين

ويدؤوا بسلاحهم الأول وهو الجنس فدفعوا نساءهم للأحضان.

ضعف الخلافة العثمانية:

سبق للصليبيين أن بعثوا إلىٰ المغول نساءً يُغرين من هنّ عندهم ويُشجّعنهم علىٰ المسير إلىٰ ديار الإسلام، وكانت هذه النساء حليلات وخليلات وقد نجحن في مهمتهنّ، وقد ذهبن مدرباتٍ علىٰ الوسائل كلها من إغراءٍ، وتشجيعٍ، ونقل معلوماتٍ، وإيقاع فتنٍ، وإثارة أحقادٍ.

ومنذ أن برزت الدولة العثمانية لجأ الصليبيون إلىٰ وسيلتهم بالإغراء، فكان كلما حدث صلح بينهم وبين العثمانيين أو جرت مفاوضات أو وُقّعت هدنة عُرض علىٰ السلطان في بداية الأمر ثم علىٰ الخليفة عندما أصبحت الدولة العثمانية خلافةً عُرض عليه الزواج من ابنة الإمبراطور أو الملك أو الأمير كتتويجٍ لما تمّ التوقيع عليه، وتأكيدٍ لحسن النيّة، ورغبةً في إظهار حسن الصلة، وقد رأينا أن السلطان العثماني الثاني أورخان تزوّج أخت زوجة إمبراطور بيزنطة.

وأن السلطان العثماني الثالث مراد الأول تزوج ابنة أمير البلغار.

وأن السلطان العثماني الرابع بايزيد الأول تزوج أوليفيرا أخت ملك الصرب إصطفان بن لازار.

وأن الأمير سليمان بن السلطان بايزيد الأول تزوج إحدىٰ قريبات إمبراطور بيزنطة.

وأن السلطان العثماني السادس مراد الثاني تزوج (مارا) ابنة ملك الصرب، وتزوج أيضاً زوجة نصرانية هي أم السلطان محمد الفاتح.

وأن الخليفة الثاني سليمان القانوني تزوج روكسلانة جاريته اليهودية.

وأن الخليفة العثماني الخامس محمد الثالث هو ابن جاريةٍ نصرانيةٍ من إمارة البندقية الإيطالية، والجارية اسمها (بافو) كانت جارية أبيه مراد الثالث.

وكثير أمثال أولئك.

وكان لهذه الزوجات دوراً أساسياً مُهماً يجب أن يُؤدّينه، وقد دُرّبن عليه تدريباً جيداً قبل أن ينتقلن إلىٰ بيوت هؤلاء الأزواج، ومن ذلك.

١" ـ إبداء الطاعة التامة للزوج ولكل من في القصر، وإظهار الإسلام غالباً، وإظهار البساطة، حتىٰ لا يتوقّع أحد منها خُبثاً، وإذا سُمع عنها أمر فلا يصدّق.

٢" ـ أن تسعىٰ للحصول علىٰ معلوماتٍ عسكريةٍ بالصلات مع الآخرين وبالسؤال للمُقرّبين ثم إبلاغ ذلك إلىٰ أهليها وأبناء عقيدتها.

٣" ـ أن تعمل علىٰ غرس محبة النصرانية في نفوس الأبناء.

٤" ـ أن تعمل بدأبٍ وبمختلف الوسائل لإيصال ابنها إلىٰ مركز الصدارة من سلطنةٍ أو خلافةٍ مع إيقاع الحقد بينه وبين إخوته، والعمل علىٰ التخلّص من الإخوة لتبقىٰ الأحقاد قائمةً، وتبقىٰ الخلافات مستمرةً، والنيران مشتعلةً في الأسرة الحاكمة بل وفي المجتمع عامةً. وهذا ما دعا إلىٰ أن يقتل الأخ إخوته حتىٰ يتفرّد بولاية العهد في البداية، وإذا لم يتمكّن أول الأمر فعندما يتسلّم الحكم بادّعاء أنه فعل ذلك حتىٰ لا ينازعونه السلطة لأن في النزاع حدوث الاختلاف ووقوع الانشقاق وبالتالي ضعف الدولة وتقوية الأعداء ثم زوال الأسرة عن الساحة نهائياً وهزيمة المسلمين أمام أعدائهم، وهذا خسارة للأمة أكبر بكثير من خسارة أفراد. ومن بعض ما حدث من هذه الجرائم وأمثلةً علىٰ ذلك: تمرّد (ساوجي) ابن

السلطان مراد الأول فأرسل السلطان جيشاً لقتال ابنه، وقد هُزم ساوجي وقُتل.

اختلف أبناء السلطان بايزيد الأول، واستقل كل واحدٍ منهم بمنطقةٍ، وتمكّن محمد من قتل إخوته الواحد بعد الآخر، إذ قتل عيسىٰ، ثم سليمان، ثم موسىٰ، ولم ينجُ من إخوته سوىٰ مصطفىٰ الذي فرّ إلىٰ اليونان، ودخل مدينة (سلانيك) وأقام تحت الإقامة الجبرية، ثم خرج بدعمٍ من إمبراطور القسطنطينية ولكن لم ينجح فقبض عليه ابن أخيه السلطان مراد الثاني بن محمد وقتله.

قتل السلطان محمد الثاني (الفاتح) أخاً له رضيعاً اسمه أحمد.

أصبحت المنازعات بين الإخوة أمراً طبيعياً، فقتل السلطان سليم الأول أخويه (كركود) و(أحمد) بعد أن تمكّن منهما.

وقتل الخليفة العثماني سليمان القانوني ابنه مصطفىٰ بدسيسةٍ من زوجته (روكسلانة) ليتولّىٰ ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه، كما سعت روكسلانة لقتل ابن مصطفىٰ الذي لا يزال رضيعاً. وكذلك قتل الخليفة سليمان القانوني ابنه الآخر بايزيد وأبناء بايزيد الأربعة

بدسيسةٍ من أحد الوزراء وبتدبيرٍ من وزيرٍ آخر بتعليمٍ من سليم بن روكسلانة الذي تولّىٰ الخلافة بعدئذٍ.

وقامت روكسلانة بدورٍ كبيرٍ في الخلافة عن طريق صهرها زوج ابنتها (رستم باشا) الذي تسلّم الصدارة العظمىٰ، كما كان لها الباع الأكبر في إنشاء فكرة يهود الدونمة، وجعل مؤسسةٍ سريةٍ لها، وهي فتاة يهودية ـ كما هو معروف ـ.

وأمر الخليفة العثماني الخامس محمد الثالث بخنق إخوته التسعة عشر ودفنهم مع أبيه وذلك يوم تولّىٰ الخلافة سنة ١٠٠٣هـ.

وبعد هذه الحادثة تُركت هذه العادة ـ ولله الحمد ـ لما كان فيها من سوءٍ وبشاعةٍ إضافةً إلىٰ أنها حرام... حرام... حرام.

ولكن صار يتولّىٰ الخلافة أحياناً صغار السن، فيسيطر عليهم ويتحكّم بهم قادة عسكريون أو سادة متسلّطون.

نتج عن هذا كله وعن أمثاله ضعف الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه قويت الدول الصليبية، وغدت نتائج المعارك سجالاً بين الطرفين تارةً يُحرز الصليبيون النصر ولكن إذا رفع المسلمون راية الجهاد

حقّقوا النصر ـ بإذن الله ـ وبقي هذا ما يُؤرّق الصليبيين، فالإغراءات أثرها الأولي على أفرادٍ، ولكن إذا حرّك الإيمان النفوس، وتحرّك القادة، ورفعت الخلافة الراية انطلق المجاهدون لا يبالون بمن أمامهم يطلبون الشهادة في سبيل الله صادقين في اندفاعهم مخلصين لله في جهادهم نصرهم الله، ومن ينصره الله فلا غالب له. واستمرت الحرب سجالاً بين المسلمين وأعدائهم حتىٰ الحرب العالمية الأولىٰ.

وجد الصليبيون أن الخلافة تمثّل وحدة الأمة الإسلامية، وما دامت هذه الخلافة قائمةً فلا يمكن للصليبيين أن يحقّقوا ما يرومون إليه. ورأوا أن الخلافة راسخة في النفوس فهي من بداية العهد الراشدي بعد انتقال رسول الله ﷺ من دار الدنيا إلىٰ الآخرة حتىٰ ساعة بحثهم باستثناء ثلاث سنواتٍ بعد سقوط بغداد، وانقطاع سنةٍ في القاهرة هي (٦٦٠ ـ ٦٦١هـ) بعد مقتل الخليفة الأول في القاهرة المستنصر بالله سنة ٦٦٠هـ وبين مبايعة الخليفة الثاني الحاكم بأمر الله.

تفرقة الأمة الإسلامية:

رأىٰ الصليبيون أن الأمة الإسلامية تضمّ عدة شعوبٍ متمايزةٍ وتشمل عدة أمصارٍ متباينةٍ، فوجد

الصليبيون أن الحلّ الذي يُناسبهم لتفرقة الأمة الإسلامية هي: إثارة النعرة الجاهلية بالدعوة العصبية من قبليةٍ نسبةً إلىٰ القبيلة ولكن هذه غير مناسبةٍ لقلة أفراد القبائل وانحصارها في مناطق محدودة ليس فيها البيئة المناسبة لإقامة دولةٍ، أو أن أفراد القبائل أصبحوا موزعين في مختلف المدن والأمصار لضرورة الحياة المعاصرة، أو الدعوة إلىٰ العصبية القومية نسبةً إلىٰ الشعوب، وهي عادةً مجتمعة في أرجاء محدودةٍ، أو الدعوة إلىٰ العصبية الوطنية نسبةً إلىٰ الأقاليم، وخاصةً بعد أن فصلها الأعداء بعضها عن بعضٍ أو جزّؤوها إلىٰ أقسامٍ، ثم استقلت بعضها عن بعضٍ بصورةٍ رسمية، وقد تنازعت هذه الأمصار وخاصةً المتجاورة منها فيما بينها علىٰ بعض المصالح كالمياه أو الحدود أو علىٰ بعض المناطق ذات الأهمية التي تقع بين الإقليمين، وتباهىٰ سكان كل إقليمٍ بمدىٰ تقدّمهم الحضاري والفكري وهذا ما زاد في الفرقة.

عمل الصليبيون علىٰ تجزئة الأمة الإسلامية إلىٰ أقوامٍ فإن الخلاف فيما إذا تمّ بينها يكون أشدّ من خلاف الأمصار، والتنازع يكون أقوىٰ، والعصبية أعنف فبدؤوا بالبحث بين المسلمين من يرفع الراية، ويحمل الفكرة، وطُرحت مُغريات وأخذت النساء دورهنّ،

ولكن لم يجد الصليبيون ضالّتهم بين المسلمين إذ شعروا أن هذه خطّة صليبية عدوانية هدفها تفرقة الأمة الإسلامية لإضعافها وتقوية الصليبية عليها فما أفاد الإغراء ولا نجح المكر.

لجأ الأعداء إلىٰ الخبث فقدّموا لمكرهم يهود الدونمة (اليهود الذين أظهروا الإسلام لهدفٍ مخططٍ له) فحمل يهود الدونمة الدعوة إلىٰ القومية الطورانية (التركية)، وقدّموا المغريات ممن يملكون ومما هم مسؤولون عنه وذلك إلىٰ الأتراك المسلمين العاديين فاستطاعوا أن ينجحوا وبرزت شخصيات لعبت دوراً بارزاً بالسياسة العامة فشجّع هذا الذين يريدون الظهور ويرغبون بالوجاهة، كما كان للماسونية دور لا يُنكر، وظهرت القومية الطورانية.

كما لجأ الأعداء إلىٰ النصارىٰ فحملوا الدعوة إلىٰ القومية العربية، وكان في هذا الدور الأكبر لنصارىٰ الشام حيث تكثر النصرانية هناك، فأسّسوا الجمعيات تحت مسمياتٍ علميةٍ وأدبيةٍ وحاولوا انتماء المسلمين إليها بالوسائل والمغريات كلها علىٰ اختلاف أنواعها ولكن لم يُفلحوا، ثم أظهر فارس الشدياق الإسلام وتسمّىٰ باسم أحمد، ليقال أن هذه الجمعيات تضمّ مسلمين، ومع الزمن وتقديم مغريات أكثر إصابةً، ومع

إعلان ضرورة استلام العرب للسلطة وزمام الأمور فهم أصحابها وأولىٰ بها فأقبل أصحاب الأطماع وطالبو الزعامة والراغبون بالوجاهة بل لقد وقع في الشرك بعض الذين نحسبهم من الأخيار ـ والله أعلم بهم ـ لما رُوّجت من إشاعاتٍ وطُرح من ادّعاءاتٍ.

ومع ما اشرأبت من أعناق أصحاب العصبيات الجاهلية، وما ارتفع من رؤوسٍ قوميةٍ من تركٍ وعربٍ تنطّعت رؤوس أخرىٰ من قومياتٍ ثانيةٍ مضىٰ عليها وقت مغطاةً فنهضت تمسح عن وجهها أثر الثبات وغبار الزمن فتحرّك رجال من الفرس والأكراد والبربر و. . . يريدون أن يأخذوا مكانتهم ويكون لهم دورهم ويرأسوا أقوامهم، فهم أهل لذاك وأصحاب إمكاناتٍ وعندهم القدرة علىٰ أن يُقدّموا للأمة الشيء الكثير، وستعلم المجتمعات هذا بعد حينٍ، وأقوامهم أهل طاقاتٍ وإن لم يُعرفوا بهذا وما ذاك إلا لأنهم لم يُعهد إليهم بأمرٍ ولم يُكلّفوا بمسؤولية.

بل إن الفرق الضالة قد ظهرت ما دام لم يعد الدين هو الأساس، وهي من أقوامٍ أساسيةٍ، وقد علت أقوامها وهي منها فانضمّت إلىٰ الركب بل مدّت أيديها إلىٰ كل من يريد غنماً في البلاد وإذا جاءها الدعم علا شأنها وارتفعت مكانتها، فاقترب منها المتنافسون علىٰ

اقتسام الديار ونهب الخيرات فكانت عملاء لهم تتحرّك حسب أهوائهم، وتتصرّف حسب ما يأمرون به. ومن يتتبع أحداث التاريخ بدقةٍ يجد الشاهد ويعرف المقدم، فقد برز منهم رئيس وسلطان وقائد وصاحب صولجان يتلقىٰ هذا الدعم من هنا، ويأتي الدفع لذاك من هناك، وكلهم طاعة لمن يُقدّم ويدعم، ومع هذا فقد سُجّلوا بين الأعلام ومن المخلصين العظام والأبطال الكرام والله يشهد إن المنافقين لكاذبون.

وبهذا غُطّي الإيمان الذي تقوم عليه الأمة، وأُغفل الجهاد الذي يدفع بالقوة ويرفع الروح المعنوية وبذا تهلهلت الأمة الإسلامية إذ تراجعت قوتها، وضعفت معنوياتها، ونُخر أساسها، وطُعنت أركانها، وكيف لا يكون هذا وقد غدا يهود الدونمة والصليبيون عماد القومية التي تُرفع رايتها، ويُدعىٰ لها، ويفتخر بالدعوة لها، وغدت الفرق الضالة والتي يعود أصل أكثرها إلىٰ اليهودية دعامة البناء، ثم مُنع الحديد والإسمنت وهما الإيمان السليم والدين الحق.

ومع ذلك فقد بقيت الصليبية علىٰ حذرٍ شديدٍ وتخوّفٍ كبيرٍ إذ لو رفعت الخلافة راية الجهاد لما استطاع غير المسلمين الكلام، إذ هم أقلية ويخشون العاقبة ويخافون كشف الغطاء وكذا أمر المنحرفين

والمنافقين ومن أغراهم الصليبيون بمغرياتهم من جنسٍ ومالٍ ومنصبٍ وصدارةٍ، ويعرف الصليبيون أنه إذا رُفعت راية الجهاد فلن يقف أمام المسلمين عدوّ، كما لن يقف أمام المجاهدين أولئك المخالفون المعاندون ما دام المسلمون هم الأكثرية، وبذا يكون النصر بجانبهم ـ بإذن الله ـ، وهذا الذي يخشاه الأعداء دائماً. لذا رأىٰ الصليبيون أن يكون العمل ضد الخلافة.

الحرب العالمية الأولىٰ:

كانت الدول الأوربية من الناحية الصليبية ضد الدولة العثمانية وتعمل جاهدةً لضربها والقضاء عليها بل وعلىٰ الإسلام، وإذا كانت بعض هذه الدول الأوربية قد تحالفت أحياناً مع الدولة العثمانية فإنما ذلك يعود لمصالح خاصةٍ وحرباً لدولةٍ أو أكثر معاديةً لها. وقد كانت هناك معاهدات أو عقد حلفٍ بين فرنسا والدولة العثمانية لا بُعداً لفرنسا عن الصليبية بل حرباً للنمسا أو إيطاليا أو روسيا وغيرها من الدول التي هي علىٰ خلافٍ مع فرنسا أو منافسةٍ لها في الاستعمار و. . .

زاد الخلاف والمنافسة بين الدول الأوربية علىٰ المستعمرات والمصالح الاستعمارية وقد فازت بعضها بنصيب الأسد علىٰ مستعمراتٍ في إفريقية وآسيا مثل:

فرنسا وإنكلترا وأخذت بعض الأقاليم في إفريقية، وتوسّعت روسيا في آسيا وامتدّ سلطانها على مناطق واسعةٍ وإن كان همّها الأساسي الوصول إلى المياه الحرة (الدافئة) كالبحر المتوسط والمحيط الهندي، أما ألمانيا فلم تحصل إلا على أجزاء محدودةٍ لا تكاد تُذكر. وكانت المنافسة بين دول أوربا والصراع، وانقسمت إلى فريقين: فريق يشمل إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا، وفريق آخر تمثّله ألمانيا، واشتدت الأحداث وتوتّرت الأمور، واندلعت نار الحرب العالمية الأولى في ١٣ رمضان سنة ١٣٣٢هـ (٤ آب ١٩١٤م).

استطاع أنور باشا(١) أن يجرّ الدولة العثمانية إلى

---

(١) أنور باشا: ولد في إستانبول سنة ١٢٩٩هـ، كان أبوه أحمد بك من حاشية الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، وتزوج ابنة أخي الخليفة، دخل الكلية الحربية في إستانبول وتخرج منها برتبة نقيب، وعُيّن بالفيلق الثالث في (سلانيك)، وقاد عام ١٣٢١هـ العمليات العسكرية العثمانية ضد العصابات المقدونية، وفي سنة ١٣٢٤هـ عُيّن في أركان الفيلق الثالث بـ(مناستير)، وانضمّ هناك إلى منظمة الاتحاد والترقي، وجذب إليها الجنرال محمود شوكت، وفي سنة ١٣٢٧هـ عُيّن ملحقاً عسكرياً في برلين فتعلّم اللغة الألمانية. ثم ترك برلين وانضمّ إلى المقاومة العثمانية في ليبيا ضد الطليان، وعُيّن سنة ١٣٣١هـ حاكماً على منطقة بنغازي، وعاد إلى إستانبول وقاد=

الحرب العالمية بجانب الألمان مع جماعة الاتحاد والترقي وأصحاب فكر القومية الطورانية والماسونية[(١)]

= انقلاباً ضد خصومه من أعضاء تجمّع الائتلاف الحرّ، واستعاد (أدرنة) من البلغار في حرب البلقان الثانية، وحكم البلاد مع طلعت باشا وجمال باشا حتىٰ هُزمت الدولة في الحرب العالمية الأولىٰ، واحتلّ باكو بعد الثورة الشيوعية سنة ١٣٣٦هـ، وفرّ إلىٰ ألمانيا، وذهب إلىٰ موسكو سنة ١٣٣٩هـ، ورجع إلىٰ برلين للذهاب إلىٰ الأناضول، وحاول الروس الاحتفاظ به ففرّ منهم بحيلةٍ، وانضمّ إلىٰ الثورة المضادة للشيوعية في بخارىٰ، وطلب من الروس إخلاءها فقُتل في المعركة سنة ١٣٤٢هـ.

(١) الماسونية: منظمات عالمية ينتظم فيها فئات من مختلف الشعوب، تعمل علىٰ خدمة بعضها لبعضٍ، ولكن تعمل بوحيٍ يهوديٍ وأسرارٍ يهودية، فاليهود هم الذين نظّموها وأقاموها ويُشرفون عليها، وينتمي إليها الذين بحاجةٍ إلىٰ دعمٍ وخاصة الزعماء، ومن يريد لنفسه الزعامة ممن لا مبدأ له ولا دين إن كان يعرف حقيقتها، وقد دعمت هذه الحركة الجمعيات السرية التي تعمل ضد الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، وبذلت قصارىٰ جهدها لمساعدة اليهود في مسعاهم للهجرة إلىٰ فلسطين وتكليف الرؤساء للعمل لهذا المسعىٰ، كما عملت هذه الحركة في صفوف العثمانيين سرّاً، فهي بالأصل منظمة سرية، وتمكّنت أن تضمّ إليها أعداداً من الأشخاص البارزين، وهي أساساً توجّه اهتمامها إلىٰ البارزين كي تستفيد منهم في تحقيق مسعاها، وتستطيع أن تُكلّفهم بخدماتٍ لغيرهم كي تجلبهم إليها أو تُحقّق علىٰ أيديهم بعض أغراضها، ومن=

وكل الذين يخالفون فكرة الخلافة الإسلامية بل الإسلام، وإن أبدىٰ بعضهم المعارضة لإخفاء الهدف والفكرة التي يعملون لها، وقد عارض فكرة دخول الدولة العثمانية الحرب إلىٰ جانب ألمانيا محمد طلعت باشا[1] الذي لم يلبث أن وافق علىٰ دخول الحرب،

= هؤلاء الذين كسبتهم محمد طلعت باشا الذي انتخب رئيساً لمحفل الشرق العثماني، وأحمد جمال باشا. وقد أوقعت الماسونية الدولة العثمانية بكثير من الأزمات السياسية. إذ أصبحت الدولة تحت نفوذ الماسونية بتأثير محمد طلعت باشا وأحمد جمال باشا، ولما علم طلعت باشا بالمؤامرات قتلته الماسونية علىٰ أيدي الأرمن في برلين.

(١) محمد طلعت باشا: ولد في أدرنة سنة ١٢٩٢هـ، وكان أبوه موظفاً صغيراً لدىٰ الدولة العثمانية، درس القانون في مدينة (سلانيك)، وانضمّ إلىٰ شركة الهاتف، ودخل في جمعية تركيا الفتاة، ورأس أول خليةٍ للاتحاد والترقي في (سلانيك) مع سبعةٍ من أصدقائه، ثم اعتُقل لنشاطه السياسي، وأُطلق سراحه بعد سنتين، وعُيّن رئيساً لأمراء البريد والهاتف في (سلانيك)، ثم عُيّن نائباً عن مدينة (أدرنة) سنة ١٣٢٦هـ، ثم وزيراً للداخلية، فوزيراً للبريد، وتقلّد الأمانة العامة للاتحاد والترقي سنة ١٣٣٠هـ، وانتمىٰ للماسونية، وانحاز في الحرب العالمية الأولىٰ إلىٰ جانب الألمان تحت تأثير أنور باشا، وعمل علىٰ تهجير الأرمن إلىٰ العراق والشام، استقال عند الهزيمة في الحرب سنة ١٣٣٧هـ، وغادر البلاد إلىٰ ألمانيا، وقُتل هناك سنة ١٣٤٠هـ.

وكذا جاويد باشا الذي ظلّ متمسكاً برأيه فاستقال، وجمال باشا[1] الذي قال بالحياد ثم انضم إلىٰ جانب أنور باشا. أما الخليفة محمد رشاد فكان ضد الحرب ويُؤيّده في ذلك ولي العهد يوسف عزّ الدين[2]، وأكثر الوزراء.

اشتعلت نار الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء علىٰ عدة جبهاتٍ، وقد حشدت الدولة بعد التعبئة العامة نصف مليون جندي تحت السلاح، وربع مليون آخر كانت تحت التدريب. احتفظت بمائتي ألفٍ منها

---

(١) جمال باشا: ولد في إستانبول سنة ١٢٩٠هـ، انضمّ إلىٰ اللجنة السرية لجماعة الاتحاد والترقي، وهو ضابط ركن، أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة سنة ١٣٢٧هـ، ثم حاكماً لإحدىٰ الولايات، ثم قائد قوىٰ الأمن في إستانبول، ثم وزيراً للأشغال العامة، ثم أصبح أحد عناصر الحكم بعد حركة ١٣٣١هـ، قاد الهجوم علىٰ قناة السويس في الحرب العالمية الأولىٰ وفشل، وعُيّن بعدها حاكماً علىٰ سورية فعمل علىٰ سحق الأرمن، غادر البلاد بعد الحرب، وعمل عند الأفغان، واغتاله الأرمن في مدينة تفليس.

(٢) يوسف عز الدين بن الخليفة عبد العزيز بن الخليفة محمود الثاني: كان ولياً لعهد الخليفة محمد رشاد (محمد الخامس) بصفته أكبر أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة، غير أنه توفي سنة ١٣٣٥هـ قبل وفاة الخليفة محمد رشاد بسنتين. قيل: انتحر. وقيل: قتله الاتحاديون لمخالفتهم. وقيل: قُتل بالسم.

حول العاصمة إستانبول ومضيق الدردنيل، وخمسين ألفاً في تراقيا لأي طارئٍ يأتي من هذه الجهة، ومائة ألفٍ وضعوا علىٰ الجبهة الشرقية التي كان مقرّها أرضروم احتمالاً لهجومٍ روسيٍّ من هذه الجبهة، وأربعين ألفاً أُرسلوا إلىٰ فلسطين للهجوم علىٰ قناة السويس، وكان أكثر من مائة ألفٍ علىٰ شكل قطعاتٍ موزّعة في سورية والقوقاز.

لكن الأعداد لا تساوي شيئاً إذا لم ترفع راية جهادٍ لتكون المعنويات عاليةً كما أن القلوب مفترقة كل باتجاهٍ، ولم يُقاتل لهدفٍ واحدٍ فالقوميات متعددة، وكل لهدفٍ وجميعها تعمل ضد الخلافة صاحبة الأمر حتىٰ تلك الساعة، وتريد هذه القوميات التفلّت والابتعاد برئاسة زعمائها إضافةً إلىٰ التوجّهات الأخرىٰ والتأثيرات الخارجية، وفي الداخل عيون للأعداء هم إخوانهم من أبناء عقيدتهم ورعاياهم ومن أبناء الأقليات الضالة داخل ديار الخلافة ينتهزون الفرصة للانقضاض عليهم، وإن رأوا ثغرةً ولجوا منها يفتكون بمن يعيشون معهم، هذا إضافةً إلىٰ الضعف الذي كانت تعيشه الخلافة.

انهزمت جيوش الدولة، وانسحبت من مناطق واسعةٍ، وانحصرت في أقاليم تكاد تشمل السكان الطورانيين (الأتراك)؛ بل سيطر الحلفاء علىٰ العاصمة

إستانبول ما دامت تضمّ الكثير من أبناء المسلمين، وتوقّفت الحرب، وبعد مدةٍ بدأت مؤتمرات السلام تجتمع ومعاهدات الصلح تنعقد، أما بالنسبة إلىٰ الدولة العثمانية فقد جُرّد الخليفة محلياً من السلطات السياسية كافةً، وافتتح مؤتمر لوزان في سويسرة في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ بعد تولّي الخليفة عبد المجيد الثاني بثلاثة أيامٍ، وقد حضر المؤتمر وفد أنقرة فقط، ولم يحضر وفد إستانبول، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروطٍ للاعتراف باستقلال تركيا، وهي:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢ ـ طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣ ـ إعلان علمانية الدولة.

٤ ـ مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ويتوقّف نجاح المؤتمر علىٰ ذلك، وأخفق المؤتمر، ورجع إلىٰ البلاد الوفد التركي برئاسة عصمت إينونو، واختلف مصطفىٰ كمال وعصمت إينونو مع رئيس الوزراء وبجانبه الجمعية الوطنية، فاستقال رئيس الوزارة، وبدأت الدسائس إذ حلّ مصطفىٰ كمال الجمعية، وكانت الجمعية الجديدة ضده، ولكنها عجزت عن تشكيل وزارةٍ بسبب الألاعيب السياسية وكثُرت الفوضىٰ.

قرر مصطفىٰ كمال إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية، وكان الجو مكفهراً، وتفادياً للمشكلات دُعي مصطفىٰ كمال لتشكيل الوزارة فوافق علىٰ ألا يُناقش في تصرّفاته، وشكّل الوزارة، وأعلن الجمهورية، وانتُخب رئيساً لها فعمّت الفوضىٰ، وغادر أنقرة عدد من الزعماء، واتجهوا نحو إستانبول حيث التفّوا حول الخليفة عبد المجيد الثاني، وقامت الاحتجاجات إلا أن الاغتيالات هدّأت الأمور وأسكتت الألسن، وسيطر مصطفىٰ كمال علىٰ الوضع في الدولة.

دعا مصطفىٰ كمال المجلس الوطني لعقد جلسةٍ، وقدّم مرسوماً بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر الخليفة عبد المجيد الثاني بالسفر إلىٰ سويسرة، ثم أصدر مرسوماً بإلغاء الوظائف الدينية وامتلاك الدولة للأوقاف، وأرسل وزير خارجيته عصمت إينونو إلىٰ لوزان، وأُعيد المؤتمر، واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا، وانسحبت من المضائق وإستانبول.

وطويت صفحة الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤هـ).

اتخذ حكام تركيا الجدد موقفاً خاصاً إذ نسوا

موقع تركيا قاعدةً للأمة الإسلامية مدة تسع عشرة وأربعمائة سنةٍ (٩٢٣ ـ ١٣٤٢هـ) بل نسوا تاريخ هذه المدة كلها، وحاولوا أن ينساها شعبهم والأمة جميعاً، وساروا في دربٍ جديدةٍ قطعوا فيها الحاضر عن الماضي إرضاءً للأعداء الذين يريدون هذا ويُوجّهون إليه، وهم يعدّون أنفسهم تبعاً لهم للمحافظة علىٰ مراكزهم.

ونتيجة الحرب العالمية الأولىٰ وانتصار الحلفاء وهزيمة الخلافة العثمانية وشركائها سيطر الحلفاء علىٰ بعض الأمصار الإسلامية عسكرياً باسم الاستعمار، وامتدّ سلطانهم الفكري علىٰ أمصارٍ أخرىٰ فعملوا علىٰ بسط نفوذهم، وبثّ فكرهم، ونشر ثقافتهم وتحقيق ما يريدون ما داموا أصحاب النفوذ والسلطان. وقد اتخذ المستعمرون السياسة التالية سواء علىٰ الأمصار التي استعمروها عسكرياً أم التي سيطروا عليها فكرياً:

١" ـ فرض كل مستعمرٍ لغته علىٰ الأمصار التي استعمرها، وجعلها مادةً رئيسيةً، وخاصةً في المرحلة الابتدائية لترسخ في أذهان الطلاب، وتصبح عاديةً في حديثهم وكلامهم.

٢" ـ عمل علىٰ إلغاء مادة الدين الإسلامي من الدراسة،

لتنشأ الأجيال بعيدةً عن دينها وأثره في حياتها الاجتماعية ومعاملاتها وسياستها.

"٣ - ركّز علىٰ حضارة أمته في الوقت الذي أهمل فيه الحضارة الإسلامية، وإذا ذُكرت أُعطيت صفة غير الواقعية والرجعية.

"٤ - عمل علىٰ نشر المحرمات في الدين الإسلامي كالسفور، والاختلاط وخاصةً في المدارس والمؤسسات، والخمور، والبغاء و.... وروّج لذلك بمختلف وسائل الإعلام واللقاءات العامة إذ عُدّ تقدّميةً.

"٥ - سمح لأهل الذمة، ولأبناء الفرق الضالة الالتحاق بالجيش، ولم يكن يسمح لهم من قبل، وهذا ما أفقد القتال صفة الجهاد، وأضعف الروح المعنوية، وفُتحت ثغرات في نقل المعلومات العسكرية إلىٰ الغرباء إخوان أهل الذمة في العقيدة.

"٦ - بذل الجهد الكثير لإبعاد فكرة الجهاد والخلافة عن المجتمع الإسلامي؛ أي إبعاد فكرة جمع المسلمين ووحدة كلمتهم، وقتال أعداء الدين بروح إيمانيةٍ عاليةٍ.

٧" ـ احتضن الذين أظهروا سيرهم وفق سياسته، وقدّمهم ورفعهم إلىٰ آخر درجات السلّم. وفي الوقت نفسه كان يحتضن آخرين يُظهرون العداوة له، وحقيقةً بينهم أمتن الصلات وأقوىٰ العلاقات لإعطائه صفة الصدق والإخلاص بعدم التمييز، ولإخفاء حقيقة أعوانه.

فنشأ جيل في الأمصار الإسلامية التي استُعمرت خاصةً كثير من أفراده ضعفاء في عقيدتهم، مرتبطون بثقافة المستعمر، عندهم عقدة نقصٍ أما حضارة ولغة الأعداء، فترىٰ لغة الصليبيين تملأ شوارع المدن، وعلىٰ ثياب الناس، ودخلت كلمات كثيرة في أحاديث الناس فيما بينهم حتىٰ غدت كأنها من لغة الأمة، و....

ولما رأىٰ الأعداء أنهم قد وصلوا إلىٰ ما أرادوا لم يجدوا مانعاً من الجلاء عن البلدان التي استعمروها، إذ حقّقوا أكثر ما يهدفون إليه من إيجاد ركائز لهم، ومؤيدين، ونشر ثقافةٍ ولغةٍ، وإيجاد شبهاتٍ حول الثقافة الإسلامية، وإدخال محرماتٍ، ولهذا كله أثره في المستقبل. وفي الوقت نفسه فإن الجلاء يُخفّف من غربة جندهم عن بلدهم وبُعدهم عن أهليهم، كما أن استمرار الاستعمار يُولّد كراهية أكثر أهالي مستعمراتهم

لهم، في الوقت الذي يريدون التقرّب منهم للتأثير عليهم فكرياً، وشدّهم نحوهم، هذا إلا فريقاً من أصحاب المصالح إذ يُهمّهم عدم الجلاء ليبقىٰ لهم النفوذ وفرض الكلمة، وإن كان بعضهم سيكون لهم الشأن والسلطان.

كان جلاء المستعمر عن معظم الأمصار الإسلامية، وكان ما كان إذ خلّف وراءه مفتونين به وبحضارة أمته، مقلّدين له، وعن هذه الطريق استمرّ الغزو الفكري، وإن كان يختلف عما كان عليه سابقاً إذ أصبح الآن دون إكراهٍ، كما دخل هذا النوع من الغزو إلىٰ الأمصار التي لم يدخلها الاستعمار العسكري من باب الشعور بالضعف، وحبّ التقليد، والرغبة بالوصول إلىٰ الشهوة و....

حرص أعداء المسلمين الحرص الشديد علىٰ إبعاد المسلمين عن فكرة الخلافة حتىٰ لا تجتمع شعوبهم، ولا تلتقي أمصارهم، ولا تتفق كلمتهم فأثاروا العصبية الجاهلية بالدعوة إلىٰ القبلية أي ما يُعرف بالقومية (الشعوبية)، وعملوا علىٰ إيجاد من يحملها ويرفع رايتها ويتعصّب لها، فلم يجدوا بين المسلمين من يقوم بهذه المهمة رغم الإغراءات الكثيرة لأن فيها مخالفة للإسلام، إذ المسلمون جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت شعوبهم (أقوامهم) وتباينت قبائلهم، وتباعدت

أمصارهم، وتمايزت ألوانهم، وتعدّدت لغاتهم. وإن من يقوم بهذا العمل فإن أبناء الأمة الإسلامية سيقفون في وجهه وسيحاربونه ويعملون علىٰ القضاء عليه، هذا في الدنيا، وله في الآخرة عذاب شديد.

عمل أعداء المسلمين علىٰ دفع يهود الدونمة للعمل إلىٰ القومية الطورانية (التركية) ورفع لوائها، وقد نجحوا بذلك لأن أعداداً منهم قد بلغوا مناصب عليا، وتسلّم بعضهم مراتب أساسيةً في الدولة العثمانية في أواخر عهدها عندما ضعف أمرها، ووهنت قوتها، وتعددت فئاتها، وتنوّعت التنظمات فيها، كما كسبوا إلىٰ جانبهم بعض أصحاب المصالح وأهل الزعامات والراغبين في الشهرة والطامعين بالشهوة، ولم يكن يهود الدونمة بالمعروفين إذ يُظهرون غير ما يُبطنون، يُبدون الإسلام، ويُخفون يهوديتهم، بل إن كلمة دونمة (دونميك) بالتركية تعني المرتدّ. والمرتدّ في الإسلام هو من رجع عن الإسلام إلىٰ الكفر. أما هنا فيُقصد منها الذي غيّر دينه.

وفي الوقت نفسه دفع أعداء الإسلام رعاياهم في الشام خاصةً (أهل الذمة) إلىٰ رفع لواء القومية العربية في ظلّ جمعياتٍ أسّسوها تحمل أسماءً علميةً أو أدبيةً، وإن كانت تهدف أشياء ثانيةً، ومن هؤلاء: بطرس

البستاني، وناصيف اليازجي، وإبراهيم اليازجي، ولكن لم ينضمّ إليهم أحد من المسلمين مما جعل الشبهة تدور حولهم بصفتهم رعايا للصليبيين إذ هم نصارىٰ، فأظهر أحدهم الإسلام وهو فارس الشدياق، وتسمّىٰ أحمد فارس الشدياق ثم استطاعوا كسب آخرين ممن ينتمون إلىٰ الإسلام لكنهم أصحاب مصالح وشهوات فدُفعت نحوهم المغريات فأقبلوا نحوها يطلبونها. ورفع هؤلاء القوميون العرب شعار وجوب استلام العرب للحكم وأكّدوا علىٰ ذلك فزاد أهل المصالح السرعة نحوهم، ووقع بعض من يُظنّ بهم الخير في الشبك أمثال: عبد الرحمن الكواكبي وعبد الحميد الزهراوي و....

وعمل أعداء الإسلام علىٰ مدّ راية القومية العربية إلىٰ أمصارٍ أخرىٰ، لكن هناك أمصار عربية لا يوجد فيها نصارىٰ من العرب مثل مصر، إذ يوجد فيها نصارىٰ أقباط أي ليسوا عرباً فلا يمكنهم رفع راية القومية العربية، لذا فقد نقل أصحاب السيادة في هذه الأمصار نصارىٰ من عرب الشام إلىٰ مصر ليحملوا هذه المهمة ويرفعوا راية القومية، وممن انتقل من الشام إلىٰ مصر جورجي زيدان، وفيليب تقلا و.... ورفع عرب الشام النصارىٰ في مصر راية القومية العربية وأدّوا الدور الذي أُنيط بهم والمهمة التي كُلّفوا بها.

ولما ارتفعت رايتا القومية العربية والتركية وأخذت العصبية الجاهلية دورها، والعرب والترك أكبر شعوب الدولة العثمانية، تحرّكت بعد ذلك قوميات أخرىٰ وسارت علىٰ الخط نفسه فتقطعت نتيجة ذلك أوصال الأمة الإسلامية وتفرّقت كلمتها، وارتفعت العصبيات، وكل يتعصّب لقومه، ويفخر به، ويدّعي ويدّعي.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولىٰ وهي ضعيفة مُقطّعة الأوصال متفرّقة الكلمة، الخليفة منزوع الصلاحية، القادة مختلفو الأهواء، وأصحاب العصبيات همّهم جاهليتهم ونتيجة هذا فقد هُزمت الدولة، وانتزع الأعداء بعض أمصارها فاستعمروها، كما دخلوا العاصمة والمضائق. وكان هدف الأعداء الأساسي هو الخلافة لأنها جامعة الأمة الإسلامية وموحّدتها وقائدتها ورافعة راية الجهاد، لذا عمل الأعداء قبل كل شيءٍ عند عقد معاهدة الصلح علىٰ فرض إلغاء الخلافة، وطرد الخليفة من البلاد، وحجز أملاك وأموال بني عثمان، وإعلان علمانية الدولة، وقد تمّ هذا ـ كما مرّ معنا ـ وحكم تركيا من يُؤيّد هذا ويعمل به.

وأما الأقاليم التي استعمرها الأعداء وكذا التي انتشر فيها فكرهم، فقد ساد ما يريدون وعمّ الذي يهدفون إليه، ولما جلوا عنها وارتحلوا سلّموا ما كانوا

يحكمون إلىٰ رجالٍ يرضون عنهم يمثّلونهم في أهوائهم ويتبعون ما ساروا عليه، إذ كانوا بهم متأثرين ولأفكارهم حاملين، فبقيت فكرة نشر المفاسد والإغراءات عن طرق وسائل الإعلام، وعن طريق الاختلاط في الوظائف والمدارس إضافةً إلىٰ ما في الشوارع والمحلات العامة من مظاهر.

إن الانصراف إلىٰ تأمين الملذّات وتحقيق الشهوات يصرف المجتمع عن التفكير في مصالح الأمة الإسلامية وفي طليعة ذلك الخلافة. وإذا ما حدث ووُجد من يدعو إلىٰ الخلافة فرد أو جماعة ثارت حولهم الاتهامات، وأُثيرت حولهم الشائعات، وقُدّموا للسؤال، ونالوا العقوبات، وصاروا موضعاً للسخرية عند أتباع المستعمرين. لذا بعُد الحديث عن هذا الموضوع، وهذا أحد أهداف الأعداء.

كما أن المناهج الدراسية لم تبحث في موضوع الخلافة، ولم تتعرّض له، بل تتجاوز عنه تماماً أي تُغفل موضوعاً أساسياً في التاريخ الإسلامي إن لم نقل علىٰ مدىٰ هذا التاريخ حيث رافقته من بعد البعثة النبوية حيث بدأ إلىٰ سنة ١٣٤٢هـ، أو من سنة ١١هـ حيث قامت الخلافة حتىٰ سنة ١٣٤٢هـ حيث أُلغيت الخلافة أي (١١ ـ ١٣٤٢) وهو ما يعادل ١٣٣١ سنة هجرية.

وإبعاد الموضوع عن المناهج الدراسية يعني إبعاد المجتمع عامةً، وهذا ما نراه لا حديث عنه ولا كلام، وهذا من مخططات الأعداء.

وقد حدثت حادثة في بعض مناطق المسلمين جعلت الأعداء يرجعون إلىٰ أسلوب اتخذوه سابقاً. ذلك أنهم كانوا يخصّوا بعض أصحاب الميزات ببعض الخصائص من عطايا أو مناصب أو... حتىٰ يسير برأيهم ويسلك سلوكهم فيرفعونه بعد ذلك إلىٰ أعلىٰ درجات السُّلّم ليمثّلهم في منصبه ويُؤدّي دوره فيما يرغبون، وقد تعهدوا أحد الشباب في منطقةٍ، وابتعثوه للدراسة والتدريب، وتكفّلوا بكل ما يحتاج، كما تعهدوه في مكان دراسته، حتىٰ أنهىٰ الدراسة ورجع إلىٰ بلده وترقّىٰ بالرتّب ودفعوه، فقام بحركةٍ وتسلّم أمر البلد وهم وراءه يُوجّهونه ويدفعونه، فلما آل إليه الأمر أرادوا أن يقطفوا ثمرة ما بذلوا فصعب عليه الأمر أن يكون ألعوبةً بأيديهم، فطرد الإرساليات التنصيرية من بلاده، وألقىٰ البعثة اليهودية في السجن، ولم يجد من يعتمد عليه ويتعاون معه سوىٰ المسلمين فثارت العاطفة نحوهم، وظهرت الحمية وعاد الإيمان إلىٰ نفسه فسلك الطريق السليمة وابتدأ الإقبال علىٰ الإسلام حتىٰ ارتفعت نسبة المسلمين في تلك البلاد خلال أربع سنواتٍ من

٣٠٪ إلىٰ ٤٠٪ وثارت ثائرة الأعداء، واشتدّ غضبهم، وظهر حقدهم علىٰ المسلمين، وأسرّت الدولة الصليبية الاستعمارية ذات العلاقة أنها لن تأمن ولن تثق بإنسان ينتمي إلىٰ الإسلام مهما أظهر من مخالفاتٍ وأبدىٰ من أفكارٍ معاديةٍ للإسلام لأنه قد تأتيه نفحة إيمانية فيعود إلىٰ دينه الإسلام ويرجع إليه الإيمان، وأخذ التخطيط للإطاحة به، وقد تمّ ذلك، وطُرد من البلاد، ومات خارج وطنه.

عاد الأعداء يُفكّرون بالوصول إلىٰ الأخبار الخاصة والداخلية عن طرقٍ موثوقةٍ تصل إليهم متتابعةً من المصدر نفسه، لذا يجب أن يكون هذا المصدر علىٰ صلةٍ مستمرةٍ ومباشرةٍ ولم يجدوا سوىٰ الزوجة وعاد التركيز علىٰ هذا الموضوع.

ولما كانت قد ارتفعت في مجتمعاتنا الفكرة عن الناحية العلمية وتطور العلوم وتقدّم الحضارة في الغرب نتيجة الضعف الذي نزل في أبنائنا وعقدة النقص التي حلّت في بعض أفرادٍ بيننا أصبح السفر إلىٰ الغرب للدراسة وتلقّي العلوم بشكلٍ صحيحٍ، وإجراء التجارب و.... علىٰ حدّ تفكير أولئك المفتونين بالغرب والمخدوعين بحضارة الغرب لضعفنا وتقصيرنا و....

وكان الذين يسافرون في طلب العلم إما أبناء أصحاب المناصب وإما أبناء الأغنياء وذلك مباهاةً دلالةً علىٰ إمكاناتهم وفي سبيل رفع مكانتهم بعد عودتهم وقد حملوا العلم والشهادة التي تُؤهّلهم لاستلام المنصب ورفع المكانة، وأما المتفوّقون دراسةً وما السفر إلا تأكيداً لذلك، وبذا وُجد الصيد في ديار الغرب وما علىٰ أهلها إلا نصب الشباك وإلقاء الشرك ليوقعوا به الصيد. وما الشباك والشرك إلا فتيات تعمل كل واحدةٍ منهن مكرها وحيلها وفتنتها لإغرائه وإيقاعه في الشرك، فمن كان أسلوبها أكثر وقعاً في نفسه، ووجد جمالها أكثر هوىً في فؤاده سقط صريعاً في شَرَكها فأخذته وسارت به، وعاشا مدةً معاً. ولما تنتهي الدراسة وينال الشهادة ويريد العودة إلىٰ وطنه فأهله ينتظرونه فهو ولدهم، وبلده ينتظره فهو مبتعث، والمنصب في انتظاره. ويعود إلىٰ الوطن مع زوجته التي وقع في حبها وقد تمكّنت من صيده.

وتعيش الأسرة الجديدة في حبٍّ وسعادةٍ، وتعمل الزوجة إمكاناتها كلها ليكون زوجها بها سعيداً، وتحصل علىٰ ما تريد وتملك ما ترغب، وليكون زواجها دافعاً لغيره و... وغيره... فالباب مفتوح فبلادها تنتظر أعواناً لها وعيوناً لها عندنا. ولننظر نحن إلىٰ بعض أقاليم الشام وشمالي إفريقية.

حبذا ننظر السادة في ديارنا، وزوجاتهم، وأبناءهم الورثة و. . . ومع الأسف فلا عالم ينصح ويُحذّر، ولا صاحب فكرٍ يُرشد، ولا رأس يُنبّه إلىٰ ما ينتج عن مثل ذاك الزواج. إنهم يخشون الاتهام بالخروج عن الطاعة لأولي الأمر، وأبو بكر الصديق ﷺ قال يوم بويع بالخلافة بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه:

أما بعد أيها الناس، فإني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتىٰ أردّ إليه حقه إن شاء الله تعالىٰ، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتىٰ آخذ منه الحق إن شاء الله تعالىٰ. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ قطّ إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

الخاتمة

لقد نزل بنا الضعف، وحلّ بنا الوهن، وأصابتنا الفِرقة، وساد بيننا الاختلاف، وعمّ النزاع، وانتشرت الفاحشة، وشاعت الفوضىٰ، وضُربنا بالذلّ، وضعُفت الهمّة، وخفّت العزيمة، وانهارت الروح المعنوية لأننا أهملنا أموراً، وتخلّينا عن أساسياتٍ، وتناسينا موضوعاتٍ، وتكاسلنا عن شؤونٍ، وتركنا واجباتنا، فيجب علينا أن نعرف أن:

الإيمان يجمع بين القلوب، ويمنع الفاحشة.

والخلافة تجمع بين الشعوب، وتزيل الخلاف.

والجهاد يرفع الروح المعنوية، ويضرب الذلّ.

فعلىٰ كل مسلمٍ أن يؤدّي دوره، ويحمي الثغرة التي يقف عليها، ويُعلن ذلك بالقول والعمل صادقاً مخلصاً يبتغي رضا الله، ولا يخشىٰ في الله لومة لائم.

علىٰ الراعي الالتزام بأوامر الله وتطبيق ذلك، والحذر من الأعداء، وإعداد العدة الكاملة للجهاد في سبيل الله، وحربهم، والوعي الكامل لمكرهم.

وعلىٰ العالم النصح والإرشاد لا يخاف ظلم ظالمٍ، ولا يهاب بطش جبّارٍ، ولا يخشىٰ متكبّراً، ولا يُبالي طغاة الأرض مهما كان عتوّهم، والانتباه والوعي لما يجري.

وعلىٰ الرعية السمع والطاعة، والإخلاص بالعمل، والوعي للأحداث.

فإذا أدّىٰ كل مسلمٍ دوره، ووعىٰ أمره، وأخلص عمله وصدق عاد للأمة عزّها ورجع إليها مجدها ووحدتها وخلافتها، ودثرت ما كان من ذلٍّ وضعفٍ ـ بإذن الله وتوفيقه ـ.

والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، وخشي الرحمن بالغيب. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

المُحْـتَوىٰ

الموضوع	الصفحة

كُتُبٌ للمؤلِّف

بناة دولة الإسلام

المجموعة الأولى:

١ ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم.
٢ ـ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.
٣ ـ عبد الله بن جحش.
٤ ـ الزُّبير بن العوام.
٥ ـ زُهير بن أبي أمية.
٦ ـ سُهيل بن عمرو.
٧ ـ سعد بن معاذ.
٨ ـ عَباد بن بشر.
٩ ـ محمد بن مسلمة.
١٠ ـ أُسيد بن الحُضير.

المجموعة الثانية:

١١ ـ الفضل بن العباس.
١٢ ـ جعفر بن أبي طالب.
١٣ ـ عبد الله بن الزبير.
١٤ ـ عبد الله بن حُذافة.
١٥ ـ المِقداد بن عمرو.
١٦ ـ عَقيل بن أبي طالب.
١٧ ـ صخر بن حرب.
١٨ ـ زيد بن حارثة.
١٩ ـ أبو العاص بن الربيع.
٢٠ ـ ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة:

٢١ ـ العباس بن عبد المطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عُبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبد الله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حُذيفة بن عُتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حُذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة بن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عُبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

المجموعة الرابعة:

٣١ ـ مُصعب بن عُمير.
٣٢ ـ كعب بن مالك.
٣٣ ـ أبو أيوب الأنصاري.
٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص.
٣٥ ـ حمزة بن عبد المطلب.
٣٦ ـ عاصم بن ثابت.
٣٧ ـ عبد الله بن عبد الله بن أُبي.
٣٨ ـ طلحة بن عُبيد الله.
٣٩ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.
٤٠ ـ أبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشَة.

المجموعة الخامسة:

٤١ ـ عمرو بن العاص.
٤٢ ـ عِكرمة بن عمرو بن هشام.
٤٣ ـ شُرَحْبيل بن حَسَنة.
٤٤ ـ أبو موسى الأشعري.
٤٥ ـ عِياض بن غَنْم.
٤٦ ـ جَرير بن عبد الله البجلي.
٤٧ ـ المُثَنى بن حارثة الشيباني.
٤٨ ـ خالد بن الوليد المخزومي.
٤٩ ـ عَدي بن حاتم الطائي.
٥٠ ـ ثُمامة بن أُثال.

المجموعة السادسة:

٥١ ـ خباب بن الأرتّ.
٥٢ ـ صُهيب بن سِنان.
٥٣ ـ بلال بن رباح.
٥٤ ـ عمار بن ياسر.
٥٥ ـ عامر بن فهيرة.
٥٦ ـ مَرثد بن أبي مرثد.
٥٧ ـ سلمان الفارسي.
٥٨ ـ أبو ذر الغفاري.
٥٩ ـ عبد الله بن مسعود.
٦٠ ـ عبد الرحمن بن عوف.

المجموعة السابعة:

٦١ ـ أنس بن مالك.
٦٢ ـ البراء بن مالك.
٦٣ ـ جابر بن عبد الله.
٦٤ ـ الطُفيل بن عمرو الدُّوسي.
٦٥ ـ أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر.
٦٦ ـ أبو أمامة أسعد بن زُرارة.
٦٧ ـ عُتبة بن غَزْوان.
٦٨ ـ مُعاذ بن جبل.
٦٩ ـ زيد بن ثابت.
٧٠ ـ أبيّ بن كعب.